عبد الوهاب مطاوع

أماكن في القلب

أماكن في القلب



هذا الكتاب ..

سيدخل عبد الوهاب مطاوع تاريخ الأدب بوصفه أول كاتب حوّل الإبداع إلى مؤسسة لفعل الخير وأحال الخير إلى أعمال إبداعية.

عندما تقرأ له تلمس بأصابعك مباشرة آلام المصريين وآمالهم وتسمع بأذنيك عبر حروفه آهاتهم

والشخصيات والمواقف التي يتناولها في صوره القصصية الإبداعية ومنها هذا الكتاب، سبق لها أن كانت شخصيات من لحم ودم عرفها في مشوار حياته أو استجاب لها بالخير والود والحب في بريده.

هو كاتب يرحب به القارئ، ويسعد به الناشر

الناشر

الناشر : **مكتبة مدبولي الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٤٢٢٥٠ ـ ٣٤٧٧٤١٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع : ٣٨٨٧/ ٩٤
الترقيم الدولي : 6 - 65 - 9775393

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

عربية للطباعة والنشر
٧ ، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
ت : ٣٠٣٩٠٩٨

تصميم الغلاف : كامل جراڤيك

الإهداء

أنا أول حزن !

كنت أسير في درب كساه العُشب
عندما سمعت فجأة أحداً يقول :
هل تعرفني ؟
فالتفتُ إليها وقلت : لا أستطيع أن أتذكر اسمك .
قالت : أنا أول حزن كبير .. في شبابك .
ثم همست : قلت مرة أنك ستزعى حزنك إلى الأبد .
فاحمرّ وجهي وقلت : نعم .. غير أن السنين مضت ونسيت !
وأخذت يدها في يدي وقلتُ : .. ولكنك تغيرت
فقالت : ما كان حزناً مرة .. أصبح الآن سلاماً !

طاغور في ديوان «الهارب»

. . . .

. . . إلى أول «حزن كبير» في حياة كل إنسان
أهدى هذا الكتاب احتراماً .. لكل الأحزان !

عبد الوهاب مطاوع

(١)

فنجان للذكرى

فنجان للذكرى

☐ قادته الصدفة إلى هذا المقهى الأنيق فانحرف إليه ليريح قدميه من التجوال بين المحلات التجارية. موقع مثالي لمقهى يستريح فيه المشترون أثناء الشراء فلم يعجب لشغل معظم مقاعده بالجالسين وإلى جوارهم أكياس المشتروات.

جاء الجارسون فطلب فنجان القهوة المعتاد.. وراح يتسلى بتأمل الجالسين حوله من رجال ونساء. عادة اكتسبها منذ فترة أن يتجول بين المحلات منفردا بنفسه ثم يجلس في أول مقهى يصادفه ليستريح ويشرب فنجان القهوة ثم يواصل التجوال من جديد. المشي علاجه وسلواه وفترات الاستراحة القصيرة في المقاهي فرصته لكي يتأمل الوجوه ويحاول أن يستشف ما وراءها من شجون وأسرار. تلفت إلى يمينه فتسمرت عيناه على مشهد تمنى لو كان رساما ليخلده بريشته في لوحة جميلة يرنو إليها كل حين.

فإلى مائدة قريبة جلس رجلان يوليانه ظهريهما، وأمامهما جلست سيدة جميلة تألق وجهها جميلا ساحرا بين كتفي الرجلين.. فتعجب

ملامحه المتناسقة كأنما نحتها مثال يعبد الجمال . . وتعجب أكثر لشدة تشابهه مع وجه فتاته الوديع .

رشف من فنجانه رشفة جديدة . . فرأي من فوق الفنجان الطفل الوليد يبكي . . وأمه تهدهده بحنان وصبر وابتسامتها الجميلة لاتفارق وجهها ، فتمني لو حل عنها طفلها لتفرغ هي للعناية بنفسها .

مثلها كانت جميلة ووديعة . . ومثلها كانت تفيض حنانا علي كل من حولها ، ومثلهم كان يخرج معها إلي المحلات التجارية يطوفان بها . . ثم يدعوها للاستراحة في أول مقهي يصادفهما . فتلبي الدعوة مبتهجة .

كانت تحب التجوال بين المحلات التجارية . . ولاتطيق شراء شيء إلا إذا كان معها وسألته عن رأيه فيه وفي قيمته ، باعتباره محاسبا ناجحا موعودا بالنجاح ! وعنها اكتسب هذه العادة وعرف الطريق إلي مقاهي الأسواق . رآها لأول مرة في حفل قران شقيقه فلفتت نظره بجمالها وهدوئها وروحها الطيبة . سأل عنها شقيقه ، فعرف أنها إحدي قريبات عروس شقيقه وتعيش وحيدة مع أمها وتعمل مدرسة . تأملها طوال الحفل فلاحظ معاملتها للجميع برقة واحترام ، وبات ليلته مشغولا بها . باحتراس سأل عنها عروس شقيقه ، وطلب منها أن تجس نبضها تجاهه ، فجاءت النتيجة مبشرة . بعد شهرين من الخطبة اعترفت له بأنها علمت بسؤاله عنها في حفل القران وتمنته لنفسها وترقبت الخطوة التالية من جانبه بقلق شديد . . غمرته بعدها بشلال من الحب الدافق ، وحولت

أيامه إلي حلم جميل . حبيبتي نهر من الحب كان يبحث عن مصب له . . ووجده فاستقام مجراه وترقرقت مياهه صافية . عذوبة الروح أبرز مزاياها . . أما وجهها فنبع من الجمال الوديع لاتمل العين الارتواء منه . قالت له قبل الزواج :

انتظرتك كل سنوات عمري فلا تفارقني بعد أن عثرت عليك . . فأجابها دامعا :

وكيف يفارق الجسم روحه حتي لو أراد ذلك؟

تزوجا بعد عامين من الخطبة ، تلازما خلالهما كل يوم بعد انتهاء العمل حتي المساء ، واشتريا مستلزمات عشهما الصغير معا ورقة . . ورقة وتعاونا في كل شيء بسماحة ، فلم يمض أسبوع دون أن يطوفا بالمحلات أكثر من مرة حتي ملابسها اشترتها معه قطعة بعد قطعة واسترشدت برأيه فيها وكلما كلت أقدامهما التجوال ، تلمسا أول مقهي يصادفانه وجلسا فيه يتهامسان ويتناجيان . جلسا في كل مقاهي وسط المدينة لكنه لم يكتشف هذا المقهي الأنيق إلا اليوم ، فكأنما كان علي موعد مع وجه هذه السيدة الجميلة التي تهز ذراعيها بحنان لتهدهد طفلها . . تري مَن من هذين الرجلين زوجها؟ أيا كان زوجها فليسعد بها كما سعد هو بشريكة حياته حين ضمهما عشهما الصغير . ففي رحابة مضت الأيام سعيدة هادئة . . وتبدت له بعد الزواج مزاياها الحقيقية ، فازداد افتتانا بها واكتشف أنها من هذا النوع الفريد من البشر الذي يصعب عليك أن

تختلف معه . . وإذا اختلفت تعذر عليك أن تتمادي في الخلاف معه . . وإذا تماديت عجزت عن أن تضيق به أو تكرهه! أما عذوبة روحها فلقد اجتذبت إليها قلوب كل من تعاملت معهم من الأهل والجيران وأصحاب المحلات القريبة من المسكن . أما سر جاذبيتها فلقد عرفه منذ ارتبط بها فلمس فيها حبا صادقا لكل الناس وعطفا عليهم، واستعدادا مخلصا للعطاء لكل من يحتاج إليها، فقال لنفسه : حبيبتي عطف ورحمة فلتسعد بحياتها كيفما تحياها .

وعامان مضيا كلمح البصر من عمر زواجهما . . فلم يشك خلالهما من شيء لكن فتاته ساورها القلق بسبب تأخر الإنجاب . . فتكدرت بعض أوقاتها .

وإرضاء لها أجري تحاليله فلم تكشف عن شيء فيه . . وتنقل معها بين عيادات الأطباء، وراقبها بإشفاق وهي تتجرع الأدوية وتلتزم بالعلاج وأطاعها راضيا فيما يخصه من تعليمات داعيا ربه أن يحقق لها أمنياتها لكي تهدأ خواطرها . . أما هو فسيان عنده أنجبت الملائكة أم لم تنجب . ولم تيأس من حلم الحمل لحظة وأحست بمرارة الخذلان مرتين فتعرضت للإجهاض المبكر وبكت طويلا . . وساءت صحتها حتي توسل إليها ألا تعرض نفسها للخطر مرة أخري ثم لاحت البشائر واعدة بتحقيق الأماني في المرة الثالثة فاستقر الحمل . . وتكورت بطنها بحمل وسعدت به سعادة طاغية فدعا لها من قلبه بالسلامة في كل الأحوال .

ومضت معظم شهور الحمل وهي شبه راقدة دوما علي ظهرها . . وأمها وصديقاتها وجاراتها يتناوبن خدمتها بحماس . . وهي توزع شكرها وعرفانها بسخاء . . وبعد عودته من العمل، يخلص لخدمتها وحده ويتفرغ لرعايتها فيتلقي شكرها الباسم كل لحظة ويسمع وعدها المتكرر له بأن ترد له الجميل بعد الولادة . . وأن تنذر نفسها لخدمته طوال العمر!

وبلغت شهرها الثامن وهي تزداد جمالا وشفافية، وجاءت أمها في الصباح ذات يوم لتبدأ نوبتها في الرعاية، فقبل زوجته وتلقي رجاءها التقليدي بألا تطول غيبته عنها، ثم خرج إلي العمل، فوجيء بمديره يكلفه بالسفر فوراً إلي فرع الهيئة بالاسماعيلية لمراجعة حساباته والعودة إليه بتقرير عاجل عنها في المساء . حاول الاعتذار بأن حالة زوجته الصحية تستدعي وجوده بالقرب منها، لكن مديره أكد له أن المهمة لن تستغرق سوي ساعات . فتوجه إلي مهمته وعاد إلي مقر الهيئة في المساء فاستقبله المدير واجما واستلم تقريره بغير تعليق، ثم طلب منه باقتضاب أن يتوجه إلي المستشفي لأن زوجته قد فاجأها الوضع خلال غيابه!

وهرول الي المستشفي منزعجا . . وصعد درجات السلم إلي غرفة الولادة مهرولا فصدم بمرأي أم زوجته وصديقاتها وزوجة شقيقه يبكين في حرقة . ساعات ثقيلة مضت قبل أن يستوعب الحقيقة القاسية ويعي أن زوجته الجميلة قد ماتت وهي تضع حملها ويصدق أنها قد رحلت تاركة له طفلة غير مكتملة النمو . وأن الطفلة قد حجزت في الحضانة

للاعتناء بها . وأيام أثقل مضت قبل أن يميز الأشياء . . ويستعيد بعض قدرته علي التركيز فيجيب سائله عن الاسم الذي يختاره لطفلته . . بأنه يسميها «عتاب» كأنما يعاتب به الدنيا التي حرمته وحرمتها من أمها الحبيبة ، وحتي هذا العزاء لم يدم طويلا فلقد تدهورت صحة الصغيرة سريعا ، وفشلت محاولات إنقاذها ولحقت بأمها الجميلة في السماء .

لو عاشت طفلته لبلغت عمر هذا الوليد الذي تحمله أمه التي يري وجهها الوديع الآن من بين كتفي هذين الرجلين . . ولو طالت حياة أمها لحملتها علي ذراعيها كما تحمل هذه السيدة طفلها وجلست في مواجهته باسمة تهز ذراعيها من حين لآخر وهي تتحدث إليه ، لكن الأحلام القصيرة لاتطول ، ولم يبق من عبق ذكراها سوي أنفاس شريكة العمر التي يسمعها تتردد الي جواره وفي فراشه كل ليلة وهو يحاول النوم بلا جدوي ، وسوي رائحتها الجميلة التي يشمها ويتنسمها في كل شبر من العش الخالي .

وبعد أن فشلت المهدئات المختلفة في مساعدته علي اقتناص بضع ساعات من النوم معظم ليالي الشهور الماضية ، نصحه طبيبه بأن يمشي علي قدميه كل مساء لأطول فترة ممكنة لينهك جسده غاية الانهاك . يعود الي بيته في الليل فينام كالقتيل . . وتحير في البداية أين يمشي ، ثم قادته قدماه بغير ارادة الي نفس المحلات التجارية التي كانا يتجولان فيها معا ، فراح يتنقل بينها ويتشاغل بمشاهدة معروضاتها بذهن غائب ،

وكلما غلبه الارهاق استراح قليلا في أول مقهي يصادفه . . واحتسي القهوة وأشعل سيجارته وبحثت عيناه دائما عن أسرة صغيرة من زوج شاب وزوجة جميلة وطفل صغير ليجلس بالقرب منها ويتأملها ويتسمع حديثها داعيا لها بقلبه بالسعادة واجتماع الشمل حتي نهاية العمر . وأسرف في المشي واحتساء القهوة والتدخين ، حتي أنذره الطبيب بأن صحته تسوء بدلا من أن تتحسن ، ونصحه بالامتناع عن التدخين والاعتدال في شرب القهوة . . لكن أني للقلب الحزين أن يستجيب لنصائح العقل المجردة؟

. . . وأفاق من أفكاره علي صوت حركة صادر من مائدة الاسرة التي يرقبها ورأي الزوجة الجميلة تنهض استعدادا لمغادرة المقهي وسمعها تعتذر شاكرة لأحد الرجلين الذي حاول أن يحمل عنها طفلها ، ثم تحتضن الطفل وتسير في المقدمة فحزم أمره سريعا وقرر أن يتابع الاسرة السعيدة لبعض الوقت لعله يزداد ارتواء من وجهها الجميل الذي أعاد الحياة الي وجه زوجته . . فكأنما استعارته منها بعد الرحيل لتواصل به امتاع العيون!

. . استدعي الجارسون باشارة متعجلة . . ومد يده الي جيبه ليخرج النقود ، فاذا بأسرة أخري وزوجة وطفل صغير تدخل المقهي من اليسار وتتجه الي مائدة أخري قريبة . . فتأمل وجه الزوجة الجديدة ذاهلا لشبهه الغريب بوجه زوجته . . وراقبها باهتمام شديد وهي تضع طفلها علي

المائدة ريثما تصلح له ملابسه ثم تحمله مرة أخري علي صدرها.. فتراخت يده عن النقود في جيبه وثبتت عيناه علي الوجه الحنون.. وتراخي جسمه في مقعده.. وهو يقول للجارسون الواقف أمامه منتظرا الحساب:

فنجان قهوة آخر.. من فضلك!

(٢)

أجازة عارضة!

أجازة عارضة !

ـ قالت له وهو يستعد لمغادرة الشقة في الصباح :

لا تنس أن تذهب إلى عملي وتقدم لي طلب الاجازة العارضة .

فأكد لها بهزة من رأسه أنه يذكر الأمر ولن ينساه ، ثم حمل حقيبته الصغيرة ولمس خدها بيده لمسة خفيفة وغادر الشقة .

راقبته وهو يغلق الباب ويختفي وراءه ثم استدارت لتبدأ مهمتها التي تغيبت عن عملها اليوم من أجلها فرأت لفافة الساندوتش الذي أعدته له منسية على مائدة الطعام بجوار كوب الشاي الفارغ ، فأسرعت بها الى النافذة وانتظرت حتى رأته يخرج من باب البيت القديم وصاحت به :

كمـــــال !

فرفع رأسه اليها متسائلا :

فألقت اليه اللفافة في كيسها المصنوع من البلاستيك في حذر فتلقاها

بين يديه باسما .. ولوح لها شاكرا ولوحت له باسمة .. ثم دخلت الي غرفة نومها فبدلت قميص النوم بفستان قديم شبه ممزق .. ستقوم بتنظيف الشقة القديمة كلها ثم كنسها .. ومسح بلاطها الكابي .. وستغسل ملابس الأسرة الصغيرة كلها وحين تنتهي من كل ذلك ستبدأ في اعداد طعام العشاء.

وتوثبت لأداء مهمتها بحماس، فرفعت السجاجيد المتهالكة وكومتها فوق مائدة الطعام، ووضعت أكوام الغسيل في الغسالة .. ثم ادارت الراديو .. وحملت المكنسة وبدأت مهمتها بحماس ..

وسط تراب الأرضية .. انبعث صوت عبد الحليم العذب يغني أغنيتها القديمة المحبوبة: أنا لك علي طول .. خليك ليا .. فرقت لها مشاعرها .. وترطب بها وجدانها. لكن هل كانت تتصور ان تسفر الأحلام الوردية عن هذا الواقع الجاف؟

لقد عرفته وهما طالبان بالسنة الثالثة بالكلية، لفت نظرها بأدبه وأمانة تصرفاته ورجولته، واهتمامه بأمرها. فتلقت رسائل نظراته الصامتة بترحيب، وفي الوقت المناسب تجرأ علي مفاتحتها بحبه فوجد أرضها مهيأة وملبية لنداء الحب، تعاهدا علي ان يتشاركا رحلة الحياة ويكون كل منهما للآخر .. حتي النهاية. وبعد تخرجهما بأسابيع طلبت منه ان يتقدم لخطبتها ليعفيها من معاناتها مع أمها التي تلح عليها بقبول خطبة شاب من أقاربها يعمل تاجرا ومستعد بامكانيات الزواج، بقوة الحب والخوف

عليه من الضياع فاتح أباه الموظف السابق علي المعاش الذي يعيش معه وحيدا بعد رحيل الأم وزواج الشقيقتين، وطلب منه مساندته في الدفاع عن حبه. خلقت الوحدة التي جمعت بينهما صداقة عميقة. أعانت الأب علي فهم مشاعر ابنه فقبل أن يتقدم لوالد فتاته رغم التحفظات. شاب بلا عمل .. وبلا مسكن مستقل .. ولا مال موروث ولا أمل في تحسن أحواله خلال وقت قصير .. فكيف يتقدم باسمه طالبا يد فتاته، لكن نداء القلب طاغ .. وعاطفة الأب لاترضي له بالخذلان، فصحب ابنه الي بيت أبيها المدير العام وصارحه بكل الظروف وتحمل الحرج وهو يجيب علي اسئلة الأب المتتالية بلا .. لا عمل الآن لكنه سيعمل قريبا كما يعمل الشباب في مثل سنه .. لا شقة مستقلة لكن شقتنا واسعة وأنا رجل وحيد ولن يضيقا بوجودي في غرفتي .. واذا ضاقا بي فسوف أوزع اقامتي بين شقتهما .. وبين بيت الأسرة القديم في بلدتي حيث تعيش شقيقتي الكبري، لا مال لدينا لكننا اسرة طيبة من أصل طيب والناس بأخلاقهم ودينهم وليس بمالهم. ولم يرفضه والد فتاته لكن أمها كانت قاسية ولم ترحم شيخوخته وضعفه وانهالت عليه بالأسئلة المحرجة وتلقت اجاباته عنها بسخرية مقنعة لم يفطن لها الأب الشيخ وإنما تأذي منها فتاها. وخرج الاثنان من بيتها مهزومين. لكن الفتاة لم تسكت علي الهزيمة .. وتصدت لأمها بحزم، صرخت في وجهها: ترفضين قريبك الثري .. لتتزوجي من «شحاذ» لا يملك شيئا بدعوي الحب، ان الحب سيقفز من النافذة بعد شهور من الزواج حين تحاصركما الديون ..

وتعانين من التقشف والحرمان. لكن الفتاة لم تتنازل عن حبها، وشجعت فتاها علي أن يمضي في طريقه وسعدت بكل خطوة حققتها علي طريق الحلم السعيد. عمل بوظيفة حكومية وعملت بعده بشهور. تنقل بين الأعمال الاضافية بعد الظهر حتي كان يعمل في بعض الأوقات من الصباح حتي منتصف الليل ولايراها إلا يوم الجمعة. وكلما تجمع في يده مبلغ صغير ادخره معها. اعطاه أبوه كل ما تبقي معه من مدخرات قليلة.. واقرضته شقيقتاه كل مدخراتها.. مع منحة صغيرة..

وبما يشبه المعجزة استطاع ان يسد علي أم فتاته كل الأبواب ويقدم لفتاته الشبكة والمهر.. ويجدد الشقة.. ولم يبق إلا تحديد موعد الزفاف.. ولاشيء يرضي الأم أو يخفف من امتعاضها فحتي صباح يوم عقد القران حاولت ان تغري ابنتها بالتراجع ولوحت لها بما سيقدمه لها قريبها من حياة مريحة ومسكن لائق.. فأصمت الفتاة اذنيها عن فحيح أمها وتزوجا وأخلي لها الأب العجوز الشقة وسافر الي بلدته لمدة أسابيع ولم يعد حتي ذهبت اليه هي مع زوجها المحبوب يدعوانه للعودة الي بيته. ونعما بالحب والسعادة رغم جفاف الحياة، وبعد زواجهما بعام رحل الأب عن الحياة فبكته الزوجة الشابة كثيرا، وذكرت له رفقه بها وعطفه عليها.

وأنجبا طفلهما الوحيد فزادت أعباء الحياة، وتكاثرت سحب الهموم في السماء الصافية مع استمرارهما في سداد ديون الزواج، فحتي الشغالة

غير المنتظمة التي كانت تقوم بتنظيف البيت مرة كل اسبوع لم تقو علي الاستمرار في دفع أجرها.. وفضلت ان توفره لمطالب الطفل الوليد والحياة. وكلما استعدت لمعركة النظافة أودعت طفلها ليبيت ليلته لدي أمها وتحملت سهام كلماتها الناقدة بصبر واحتمال وفي بداية كل شهر تجلس الي مائدة الطعام.. وتضع مرتبها علي مرتب زوجها من عمله الصباحي والمسائي.. ثم تفتح كراسة البيت وتغرق في حسابات معقدة باذلة المستحيل لكي تفي نقودهما بالمطالب الضرورية وأقساط الديون. وتقسم النقود الي أكوام صغيرة.. ثم تعيد تقسيمها. وتعيد حساباتها.. ويبقي دائما مطلب ضروري لاسبيل الي الوفاء به!

ويحاول زوجها التخفيف عنها بالتنازل عن أي مطلب شخصي له.. ويلح عليها، ألا تهمل مطالبها الشخصية.. فلاتسمع لرجائه.. وتقود سفينة حياتها بحكمة قبطان لايسمح لمشاعره بالتأثير علي قراراته!

وكلما اصطدما بمطلب طاريء.. كمرض مفاجيء للطفل أو لها.. لجأ الي شقيقتيه يقترض منهما. ولجأت هي الي أبيها تطلب مساعدته فيساعدها سرا بغير أن تعلم أمها.

انتهت من كنس الشقة فحملت جردل الماء من الحمام وألقته علي الأرض.. فساح الماء فيها.. وبهمة غريبة انحنت تمسح الأرض وتحاول جلاء بلاطها الكابي بفرشاة خشنة. لو رأتها أمها في هذا الفستان الممزق لقالت لها بلهجتها الساخرة:

سلامات ياحب!

ولو رآها مديرها المتصابي الذي حاول المستحيل معها لاغرائها بالطلاق من زوجها ملوحا لها بالشقة الفاخرة في الحي الراقي.. والسيارة.. وشقة المصيف، لشمت فيها.. لكن هيهات أن تسعد النفس بالأشياء اذا لم تسعد أصلا بالانسان، فحتي خلافاتها مع زوجها المحبوب خلافات حب تأنس بها حين تستعيدها في ذاكرتها.. غضب منها حين صرفت الشغالة وقامت هي بعملها واتهمها بأنها تشعره بالذنب تجاهها وخاصمها يوما طويلا اذا لم ترجع عن قرارها. فلم تدعه حتي بات ليلته راضيا ومتنازلا عن معارضته. ويغضب منها حين ترفض الذهاب معه الي الطبيب ليعالج الام ظهرها مفضلة توفير أجره.. ومكتفية بالمسكنات ويتهمها بأنها تطعنه في رجولته واحساسه بالمسئولية عنها. ويخاصمها أو تخاصمه.. ثم لاتمضي ساعات حتي يتصافيا وقد تستجيب لالحاحه راضية. وغضبت هي أيضا منه أكثر من مرة حين يضيق أحيانا بكلمات أمها المهينة له ويعلن العصيان ويرفض الاستجابة لدعوتها بتناول الغداء مع أسرتها يوم الجمعة. فيظل بها حتي ترضي.. وقد يذهب معها كارها ويتحمل ملاحظات أمها علي فستان ابنتها الذي لم يتغير منذ شهور.. أو مقارناتها الجارحة بين حياتها وحياة فلانة ابنة شقيقتها التي لايقدم لها زوجها في المناسبات إلا الهدايا الذهبية.. ويستأجر لها شقة في المصيف ويقضي معها اجازة نصف السنة في اسوان، ويشترك في ناد راق تذهب اليه كل صباح.. ويعطيها مصروفا شخصيا سخيا لايسألها كيف تنفقه.

فيمضي الزيارة مكتئبا.. ويعود معها الي البيت ساهما.. ولاتفلح محاولاتها للتسرية عنه.. وقد ينفجر في وجهها ويعرض عليها الطلاق لتعيش الحياة التي ترضي عنها أمها.. ويتعكر صفو الحياة يومين أو ثلاثة. ثم تمضي سفينة الحب في اتجاهها متحدية الأمواج الطارئة ويتواصل الصفاء.

أما أزمتها الحقيقية فقد وقعت بعد خمس سنوات من الزواج حين طلب منها ان تستقيل من عملها وتتفرغ له ولطفلها حتي تستريح أمها وتكف عن اتهامها له بأنه يسلبها مرتبها فلا يبقي لها منه ماتستطيع ان تشتري به حتي حذاء جديدا، تجهمت السماء تلك المرة بسحب ثقيلة لم يفلح نسيم الحب في تبديدها، وتمسك بموقفه وتمسكت بالرفض... وهددها.. فقبلت التحدي وهددته، وعاد الي الشقة في المساء فوجد الظلام يخيم عليها والشقة خالية من حبيبة القلب وطفلها الجميل فعرف ان طائر الخلاف قد حلق بعيداً في أجوائها ورفض أن يذهب الي بيت اسرتها ليعيدها الي عشها. وبات ليلته حزينا مكتئبا. وغاب طائر الحب عن بيته أياما متوالية.. تدخلت بينهما شقيقته الكبري وناصرت زوجته في موقفها وأكدت له ان فتاته أكثر واقعية منه وتري ان عملها لصالح اسرتها وطفلها.

ومن حق الطفل عليهما ان يتنازل عن كبريائه واعتباراته الشخصية لصالحه. لكنه رفض رغم اقتناعه الداخلي باخلاص دوافعها ان يذهب الي بيت اسرتها لاسترضائها. تواصلت الوساطات بينهما وأعلنت الزوجة

المحبة انها علي استعداد لان تحصل من عملها علي اجازة بدون مرتب وتتفرغ لبيتها لعام أو عامين لارضاء زوجها ورغم ان جفاف حياتها سيزداد قسوة، وصرخت أمها فيها محذرة.. وطالبت باصرار بأن يتنازل زوجها عن مطلبه الخاص بالعمل نهائيا وان يأتي راجياً لاستعادة زوجته، وإلا فليطلقها ويدعها لمستقبل أفضل مع غيره.. وتمادت في جبروتها فحددت له مهلة اسبوعين.. ان لم يأت لاسترضاء زوجته فسوف ترغمها علي طلب الطلاق منه بالمحكمة!

مضت أيام المهلة ثقيلة حتي كانت تنفد.. وهي تنتظر ان يأتي اليها زوجها المحبوب.. وأمها تنتشي باحساس الانتصار وتؤكد لها كل يوم انه لم يكن يستحقها.. وانه لن يأتي لاستعادتها.

وراجع هو نفسه طويلا.. ثم قرر ان ينقذ الحب من الغرق في بحر العناد والكبرياء، فخرج من عمله المسائي الي بيت شقيقته وطلب منها ان تذهب غدا الي بيت اسرة زوجته وتعلنهم بأنه سيجيء لاسترداد زوجته وطفله علي شرط واحد هو ألا تثير معه أمها الموضوع الجارح وان تكف عنه لسانها ووعدته شقيقته بأن تفعل. وخرج من بيتها عائدا الي مسكنه الخالي.. فادار المفتاح في الباب ودخل مكتئبا فاذا ببصيص من النور في الردهة الصغيرة، تعجب حين رآه وتأكد من انه قد نسيه مضاء عند خروجه في الصباح.. واضاء نور الصالة فرأي اطباقا مغطاة علي المائدة... رفعها فوجد طعام العشاء الذي اعتاد أن يجده في موضعه في الأيام السعيدة، فانتفض قلبه فرحاً وجري الي غرفة النوم فوجد زوجته

الحبيبة ترقد في سلام والي جوارها طفلها السعيد! فلم يتمالك نفسه وانحني علي جبهتها يقبلها بحنان واستيقظت فنظرت اليه عاتبة.. ونظر اليها ممتنا وقال لها:

لماذا لم تنتظريني للغد.. لقد رتبت مع اختي ان آتي اليك غداً

فأجابته باسمة:

انني أحسن منك وقلبي أرق من قلبك الحجري!

فحني رأسه معترفا ومسلما وقبل يدها شاكرا.

لم تتكرر المحنة في حياتها مرة أخري.. وتعلما منها ألا تتعدي خلافاتهما العابرة حدود شقتهما.. وتنازل عن مطلبه باستقالتها من عملها وسعد بها وتحمل من أجلها سهام أمها الجارحة وأصبحت لحظة العشاء التي تجمعهما في الليل.. هي واحتهما التي تذوب فيها كل المتاعب والمعاناة. واعتاد ان يسألها من حين لآخر:

ألم تندمي علي زواجك من زوج مكافح مثلي؟

فتجيبه باسمة:

لايندم علي الحب إلا جاحد لايستحقه!

وتواصلت الحياة بينهما رضية يسعدان بكل انجاز صغير يحققانه فيها علي طريق تخفيف الجفاف والمعاناة..

وانتهت من مهمتها المرهقة الأخيرة ولمعت الشقة القديمة ببريق النظافة والذوق الجميل. فدخلت الي الحمام واغتسلت.. وبدلت فستانها الممزق ببنطلون الجينز الذي تحتفظ به من أيام "الجامعة وبلوزة برتقالية جميلة. وتأملت وجهها في المرآة قليلا وسرحت شعرها.. ثم نهضت الي الثلاجة فأخرجت الطعام ورصت الأطباق علي مائدة السفرة.

فسمعت صرير المفتاح في الباب.. ودخل زوجها يمسك بيده طفله الذي مر ببيت أسرتها ليعيده.. فأسرع اليها الطفل متهللا وحملته هي - وقبلته - وأعطت خدها لزوجها ليقبله قبلة العودة التقليدية وجلس الثلاثة الي مائدة الطعام مبتهجين.. وزوجها يتلفت حوله معجباً برونق الشقة ونظافتها ويروي لها ما صادفه في يومه.. وهي تسمع باسمة وسعيدة ثم قطعت الحديث بسؤال طرأ لها.

لم تقل لي هل انتهت زيارتك لماما بسلام وبغير «خيبة» جديدة؟

فأجابها ضاحكا:

وهل هذا معقول.. لقد اسمعتني بالطبع كلمة علي الماشي عن حظ ابنة خالتك التي لديها شغالة تعطيها ٣٠٠ جنيه في الشهر.. في حين تتمرمط بنات الناس الأخريات في مسح البلاط مع الأزواج «المفقرين»

وضحكت عاليا.. وشاركها الضحك بلا ضغينة ثم قالت له:

وماذا قلت لها؟

وأجابها:

قلت لها سعيدة يا حماتي.

ثم أمسكت بيد ابني وخرجت وصوت مصمصة شفاهها يلاحقني علي السلم وانفجر الاثنان في الضحك.. وشاركهما طفلهما الصغير ضحكهما بسعادة وبغير أن يفهم دواعيه أو أسبابه!

(٣)

دموع الصباح !

دموع الصباح!

□ وجد نفسه طفلا وحيدا بين أبوين هادئي الطبع يدللانه ويرفقان به فأحبهما كثيرا.. وحملت ذاكرته الطفولية لهما دائما أجمل الذكريات.

وكانت أمه رقيقة كالخيال، ابتسامتها حزينة وتحب الأغاني العاطفية وتدمع عيناها مع صوت عبد الحليم حافظ، فيسألها حزينا عما يبكيها فتمسح دمعتها بأصابعها.. وتقبله.. وتداعبه فينسى حزنه العابر، وعلى عكس أمهات أصدقائه من أطفال العمارة والأقارب لم تكن تضربه ولاتخرج من بيتها كثيرا، فاذا حان موعد الخروج ارتدت ملابسها ووقفت أمام المرآة تنظر الي وجهها ساهمة فيبكي طالبا الخروج معها.. لكنها تلاطفه وتعتذر له بأنها ذاهبة مع أبيه الي الطبيب وتعطيه قطع الحلوى وتصطحبه الي شقة جيرانها ليلعب مع طفلها وهي تعده بألا تتأخر عنه كثيرا ولا تنصرف إلا بعد أن يرضى.. ويبتسم ويعدها بألا يزعج جارتها خلال غيابها، ثم تضع يدها في ذراع أبيه ويخرجان، ولاتطول غيبتها كثيرا فبعد ساعتين يعودان وفي ايديهما لفافة كبيرة من الدواء.. وقطعة

شيكولاتة له فيستعيدانه من شقة الجيران شاكرين، ويرقبها وهي تتجرع الدواء متقززة، فيرق قلبه لها ويسأفا عما بها.. فتشغله بالحديث عما يسأل عنه، أما وجهها الجميل فطالما أحبه وداعب شامته الصغيرة الجميلة في ذقنها، وحاول كثيرا ان ينزعها من مكانها بلا جدوى.

وبعد شهرين من التحاقه بمدرسة الحضانة لأول مرة، عاد الي بيته ذات يوم فوجد عمته في البيت ولم يجد أمه، وعرف انها ستغيب أياما في المستشفي لمرض طاريء، فتحرق شوقا لأن يزورها فيه. لكن أباه رفض بإصرار وحاولت عمته الشابة أن تعوضه غياب أمه، لكن هيهات ان يحل شخص آخر في موضع الأم الغائبة من قلبه. وطال غياب أمه. ولاحظ بقلق أن أباه يزداد وجوما وانشغالا عنه يوما بعد يوم، ورأي عمته تتحدث مع أبيه حديثا هامسا طويلا وهما يختلسان النظر اليه.. ثم شاهد عمته تبكي. فانقبض صدره وأحس بحزن غامض كئيب، وبعد أيام ازدحمت الشقة فجأة بالعمات والخالات.. وخيم الحزن والبكاء علي المكان.

وجاء خاله الشاب يدعوه للذهاب معه الي بيت جدته، فرحب بالعودة أملا في أن يجد أمه عندها، فلم يجدها هناك.. ووجد جو البيت هناك أكثر قتامة وحزنا، وبعد أيام أعاده أبوه الي البيت فأحس حين دخله كأن الكآبة قد استقرت فيه ولن تغادره بعد ذلك أبدا.. وسأله عن أمه، فأجابه الأب حزينا بأنها قد سافرت وسوف يطول سفرها الي وقت غير معلوم.. ورأي العطف في عيون أبيه وخالاته، فأدرك بقلب الطفل

أن أمه ربما تكون قد سافرت الي الرحلة التي لايعود منها أحد، وحاول أن يتلهي عن كآبة البيت بألعابه والاستجابة لمداعبات الأهل والأصدقاء، لكن شيئا ما كان يشعره دائما بأن أيام السعادة الجميلة قد ولت ولن تعود، وبعد أسابيع من «سفره أمه»، عادت عمته الشابة الي بيتها.. وخلا البيت عليه مع أبيه، وأصبح ينام في حضن أبيه، ويوقظه في الصباح ويساعده في ارتداء ملابسه ويصنع له إفطاره ثم يسلمه الي الاوتوبيس المدرسة، كما كانت تفعل أمه الجميلة في أيام الصفاء. ولغير سبب واضح في ذهنه استسلم فجأة وهو يرتدي ملابسه في الصباح بمعاونة أبيه، لنوبة طاغية من البكاء فبكي طويلا وانهمرت دموعه بغزارة شديدة، وسأله أبوه عما يبكيه فلم يحر جوابا ولم يعرف هو نفسه لماذا يبكي، وحين انتهي من بكائه، ربت أبوه علي رأسه بعطف وغسل له وجهه ثم أكمل ارتداءه ملابسه، ولم يدعه أبوه يركب الاتوبيس في ذلك اليوم، وإنما اصطحبه في سيارة أجرة الي المدرسة واشتري له كمية كبيرة من الحلوي في الطريق.. ثم تركه في فناء المدرسة ودخل الي مبني ادارتها، وبعد قليل خرج وانصرف وهو يداعبه ويطالبه بأن يستمتع بالحلوي واللعب في الفناء.

وبعد قليل من انصرافه، جاءته «الدادة» وأبلغته أن السيدة الناظرة تطلبه.. ومضي معها خائفا.. ففوجيء بالناظرة التي لايراها الاطفال في الفناء إلا متجهمة ومحذرة من الخروج علي النظام أو المشاغبة، تستقبله بابتسامة عريضة، ثم تقربه منها وتسأله عن اسمه وفصله بحنان ذكره

بحنان الأم الغائبة . . ثم تقول له انها سمعت من المدرسات عن اجتهاده وحسن اخلاقه، فرأت ان تطلبه لتراه وتشجعه علي الاستمرار في تفوقه وتهذيبه، ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت منه قطعة شيكولاته واعطتها له . . وأذنت له بالانصراف باسمة فخرج ذاهلا . . وراضيا في نفس الوقت.

وتكررت نوبات البكاء الصباحية بعد ذلك كثيرا، فهاجمته من حين لآخر دون مقدمات فيستسلم لها لفترة طويلة، حتي اصبح أبوه يخشاها ويترقبها بخوف، وينقبض صدره حين تأتي وبعد كل نوبة مماثلة يسأله بعطف:

ماذا يبكيك؟

فيجيبه حائراً:

لا أعرف!

ويصدقه أبوه مكتئبا، لأنه لايعرف حقا سببا مباشرا للبكاء لكن الحزن الغامض المستقر في القلب الصغير لافتقاده ملاكه الحارس . . يبحث دائما عن ثغرة جديدة ليعبر عن نفسه، فيطل منها بهذه النوبات الطويلة وتساءل الأب حائرا . . هل يعرض ابنه الصغير علي طبيب نفسي فأجابه اخوته مؤكدين ان الزمن هو أكبر طبيب، وكف الصغير بالفعل عن السؤال عن موعد عودة أمه من سفرها بعد شهور من غيابها،

واستقرت الحقيقة الكئيبة بشكل غامض في وجدانه . . فبدأ يعتاد خلو حياته من صوت الأم الرقيق وابتساماتها الحزينة .

وعاد أبوه بعد قليل الي نظام حياته السابق، فبدأت ساعات وحدته تطول في المساء، فقد بدأ أبوه يخرج من البيت بعد نوم الظهيرة، فيغلق باب المطبخ بالمفتاح حتي يأمن عليه من خطر الغاز، ويحذره من الاقتراب من أكياس الكهرباء . . ويضع له علي المائدة طعامه وشرابه، ويوصيه بأن يلعب بألعابه في هدوء حتي يرجع وهو يعده بفسحة جميلة في نهاية الاسبوع اذا نفذ بدقة كل التعليمات، ثم يخرج فلا يطول الوقت حتي يرن جرس التليفون، ويجد اباه يسأله عما يفعل . . وهل واجه أية مشكلة، فيطمئنه ويعود لألعابه ويتكرر الاتصال اكثر من مرة . . ويتلقي الطفل الصغير أكثر من مكالمة من احدي خالاته أو عماته .

ومضي عام طويل اعتاد فيه وحدته وكثرة انتقاله بين بيوت جدته والخالات والعمات لقضاء بضعة أيام في كل منها، وحتي أمضي معظم أيام السنة ضيفا علي بيوت الآخرين، وافتقد الاحساس الذي كان يحسه وهو في غرفته يلعب وحيدا وأمه في الجوار تتحرك وتقوم بأعمال البيت وتناديه من حين لآخر لتعطيه كبد الدجاجة . . أو قطعة حلوي . . أو زجاجة مياه غازية .

ودعته جدته لأبيه ذات مرة للاقامة في بيتها يومين، فلبي الدعوة سعيدا، وجمع له أبوه معظم ملابسه في حقيبة كبيرة وحملها معه وهو

يصطحبه الي بيت الجدة . . وأمضى يومين في بيتها واستأذنها بعدها في العودة لبيته وحجرته وألعابه، لكنها استمهلته يومين آخرين لأنها لم «تشبع» بعد من صحبته فاستجاب لرجائها راضيا . .

وانتظر أن يحضر أبوه لاستعادته بعد اليومين الإضافيين فلم يحضر . . وتساءل عن أبيه خشية ان يكون قد «سافر» هو أيضا وتركه وحيدا في بيت جدته، لكن الجدة طمأنته إلي أنه مشغول بأشياء هامة وسيحضر لاستعادته بعد اسبوع آخر، وانتظر في قلق مجيء أبيه، فطال انتظاره اسبوعين آخرين فقد خلالهما كل صبره ولم يكف عن السؤال لحظة عن أبيه وعاودته نوبة البكاء الصباحية فجأة بعد ان كانت قد نسيته منذ شهور، فوقفت جدته أمامها حائرة ودامعة، وانتظمت النوبة في موعدها الصباحي ثلاثة أيام متوالية، وفي اليوم الرابع جاءه أبوه، فقابله بالفرحة والبكاء واللوم الطويل لتركه كل هذه الفترة في بيت جدته، فتلطف الأب من غضبه وقبّله وأعلنه انه قد جاء ليصطحبه الي البيت وسيقدم له هناك مفاجأة مسعدة!

ونهض الطفل بحماس ليعود الي بيته، فاتهمته جدته بالجحود وبأنه لا يحبها، فوقف يردد نظره بابتسامة حائرة بينها وبين أبيه، وقال لها انه يحبها كثيرا لكنه رغم ذلك يريد ان يعود الي أبيه وبيته وغرفته! وجمعت الجدة ملابسه وحمل الأب الحقيبة وأمسك بيد الطفل وغادرا المسكن، ولم يطق صبرا حين خرجا فسأله عن «المفاجأة» واستمهله الأب حتى يصلا الي البيت ويراها بنفسه، وكرر السؤال مرارا وتلقى نفس الاجابة فبدأت

الآمال الغامضة تداعب خياله، وتساءل في نفسه . . هل تكون المفاجأة التي غاب ابوه من أجلها كل هذه الفترة هي عودة أمه من سفرها الطويل!

وانتهى أخيرا الطريق الذي تصور انه لانهاية له . . ووثب درجات السلم أمام أبيه متعجلا الوصول للشقة . . فوجد الضوء ينبعث من تحت بابها فتأكدت «ظنونه» وطرق الباب بيديه الصغيرتين منفعلا ونادي :

افتحي ياماما أنا وليد!

وانزعج الأب حين سمع النداء وجاء من خلفه واجما وفتح باب الشقة فاندفع الطفل داخلا . . فرأي سيدة غريبة تقف في ردهة الشقة مترقبة . . والي جوارها طفلة صغيرة تتطلع اليه في صمت، فتوقف الطفل ذاهلا ونظر الي السيدة بعين مستفهمة . . ولاحظ في دهشته وارتباكه ان الشقة قد طليت بلون جديد، وأن هناك ستائر جديدة علي النوافذ . . واخرجه من صمته صوت السيدة الغريبة وهي تقول له في رفق :

أهلا وليد . . لقد كنت مشتاقة كثيرا لرؤيتك . . ولقد وجدتك أجمل مما توقعت!

ثم جذبته اليها وضمته وقبلته فاستسلم لها وهو لايدري هل يسعد باهتمامها به . . أم يحزن لأنها لم تكن «المفاجأة» التي توقعها، وأمسكت السيدة بيده واشارت الي الطفلة الواقفة الي جوارها وقالت له :

هذه رانيا . . اختك الجديدة!

فتطلع الي أبيه كأنما يستنجد به لتفسير كل هذه الغرائب ، فلم يدعه الأب طويلا لحيرته وقال له وهو يختار كلماته بعناية :

وليد . . لن تشكو شيئا بعد الآن . . فقد اصبحت لك «ماما» جديدة تحبك وستهتم بشئونك . . واصبحت لك أخت جديدة ستلعب معك وتسليك . . وستنام معك في نفس الغرفة في سرير جديد حتي لاتخاف أثناء الليل . . أليس هذا ماكنت تتمناه؟

وهمّ الطفل بأن يقول له ما كان «يتمناه» حقا . . لكن شيئا غامضا منعه من التصريح به فسكت .

وتبادل الأب مع السيدة بعض النظرات المعبرة . . فحملت الحقيبة التي جاء بها الأب ، وأمسكت بيد وليد وقالت له في مرح :

تعال معي لنرتب ملابسك وقادته الي غرفته . . فلاحظ حين دخلها ان التغير قد شملها ايضا ، فأضيف اليها سرير جديد ودولاب صغير، وراحت السيدة تخرج ملابسه من الحقيبة وترتبها في دولابه والطفلة الصغيرة تراقب الموقف صامتة . . ووليد ينظر الي أبيه فيشجعه بابتسامته ونظراته .

وانتهت المهمة فقالت السيدة :

سأدعكما الآن تلعبان معا بعض الوقت حتي أعد لكما طعام العشاء ، ثم خرجت مع الأب ، ووجد وليد الطفلة مازالت واقفة قرب الباب تنظر إليه في ترقب وخوف ، فعزف عنها دون كلمة وبحث عن ألعابه وأخرج

منها علبة المكعبات الكبيرة وجلس علي الارض وراح يلعب بها ساهما .

وبعد دقائق رفع رأسه فوجد الطفلة مازالت في موقفها ترقبه . . وخيل اليه انها خائفة ، فعاد الي ألعابه صامتا . . وبعد دقائق اخري رفع رأسه اليها فوجدها في مكانها تتطلع اليه في صمت . . وأمل . . فأشار لها بيده ان تأتي فاقتربت منه علي الفور كأنها كانت تنتظر هذه الاشارة فأشار لها مرة اخري ان تجلس ، فجلست طائعة وأعطاها بعض المكعبات فتناولتها بترحيب وراحت تساعده في بناء السور الذي يبنيه ووقع احد المكعبات بعيدا عن مجلسه فأشار اليها فنهضت علي الفور وأحضرته له ، فرق قلبه لها بعض الشيء وسألها وهو منهمك في تركيب قطع المكعبات :

من هذه السيدة التي كانت معك؟

فأجابته : ماما .

وعاد للعب للحظات ثم سألها مرة اخري :

هل ستجلسان هنا فترة طويلة؟

فأجابته : ماما تقول اننا سنجلس علي طول!

فكاد يستسلم للغضب احتجاجا علي هذه النية لكنه عدل عنه وسألها :

ولماذا لاتجلسان في بيتكما مع بابا؟

فأجابته الطفلة ببراءة :

بابا «مسافر» من زمان . . وشقتنا مظلمة وخالية!

فتساءل متعجبا لهذه «المصادفة»:

انت أيضا «باباك» مسافر؟

وهزت الطفلة رأسها مؤكدة . . فنظر اليها طويلا . . وأحس لأول مرة منذ رآها بأنه يمكن ان يقضي معها بعض الأوقات السعيدة وان يشترك معا من حين لآخر في اللعب وفي مقاومة الخوف من الظلام اثناء الليل ، ورآها صغيرة خائفة . . ومطيعة وتترقب اشاراته لتنفذها بلا اعتراض . . فاستقر رأيه على ألا يطردها من غرفته كما فكر في ذلك منذ دقائق ، وقرر أن يسمح لها باللعب معه كلما رأى ذلك مناسبا ولكن بغير ان تستولي على أية لعبة من ألعابه ، وانهمك في بناء السور ، وهي تساعده كلما طلب منها ذلك وتستجيب في استسلام غريب لأوامره فتساءل بينه وبين نفسه متحيرا:

لماذا «يسافر» بعض الآباء والامهات بعيدا ويتركون أطفالا حائرين وخائفين . . مثل هذه الطفلة الصغيرة . . ومثله؟

(٤)

أمسية سعيدة!

أمسية سعـيدة !

❑ وصل القطار في موعده في الثالثة من بعد ظهر الخميس فغادره الضابط الوسيم الشاب وسعي بين الزحام حتي غادر المحطة . . وقف ينتظر سيارة أجرة فطال الوقت دون أن يلوح له أمل فاتجه الي محطة الميكروباص وركب احدي سياراته، في الرابعة كان يدق جرس شقة الأسرة في المنيل دقته المتقطعة المعروفة عنه فانفتح الباب عن وجه أمه المبتهج وتلقته بالأحضان والقبلات، ومن خلفها جاء ابوه فاتحا ذراعيه، ١٥ يوما كاملة يغيبها عن أبويه في عمله البعيد عن القاهرة فيخلو عليهما المسكن بعد زواج شقيقته وهجرتها مع زوجها ويخلصان للوحدة فلا يؤنسهما في وحدتهما سوي أخبار وحيدتهما المهاجرة وابنهما الغائب واجترار ذكريات رحلة العمر، الأب موظف كبير بالمعاش منذ عامين والأم مدرسة اعتزلت المهنة بعد تقاعد الأب لتخفف عنه وحدته، يمضيان معا معظم أوقات النهار والليل ويذهبان الي النادي القريب في الضحي ويعودان وقت الغداء فيقضيان المساء أمام التليفزيون .

تتغير رتابة الحياة عندهما حين يرن التليفون رنينه الطويل حاملا صوت «أماني» الملهوف دائما بالشوق الي أبويها من مهجرها في كندا، يطمئنان علي أخبارها ويسعدان بكل نجاح يحققه زوجها ويترقبان موعد عودتها في الاجازة مرة كل عامين كما يترقب المرء الأعياد.

أما «هشام» الابن الذي يعيش علي بعد مائة كيلو متر فقط من القاهرة فلا يحمل التليفون صوته من مقر وحدته العسكرية إلا نادرا.. ويعتذر عن ذلك كل مرة بأنه يدخر الشوق والكلام كله الي حين مجيئه اليهما كل اسبوعين، قلوب الابناء تختلف في ضعفها عن قلوب الآباء والأمهات.. وقد عرفا ذلك فيئسا من حثه علي الاتصال بهما كل حين.

مائدة الغداء يوم الخميس حين يعود هشام هي بهجة الاسرة حقا ومتعتها، تستعد لها أمه من اليوم السابق، ويشتري لها الأب أحسن الطعام والفاكهة، أما «التورتة» فيحملها معه هشام ويصر علي أن يأكل الأبوان منها حتي التخمة، حديث المائدة يدور دائما حول احداث الاسبوعين الماضيين في حياة الابن.. وحكاياته اللذيذة تثير ضحكات الأم والأب من القلب.

لكن هشام يتعجل انهاء الجلسة كل مرة وينهض متسرعا رغم احتجاج الأم فيغتسل ويغير ملابسه.. ويواجه حرج الاستئذان في الخروج قبل ان يرتوي شوق الأم اليه.

قالت له عاتبة:

الا تصبر قليلا علي لقاء «الهانم» حتي تشبع من طعام الغداء.. وتستريح من السفر؟

فنظر اليها باسما ومحرجا.. وانقذه أبوه من حرجه قائلا له:

اذهب يا هشام.. وبلغ تحياتي للاستاذ حسني ولاتتوقف أمام كلام أمك فلو استطاعت لأبقتك الي جوارها ولما سمحت لك بزيارة خطيبتك ولا بالعودة لعملك مساء غد.. فقبل الشاب امه وودع أباه وخرج.

في بيت فتاته.. وجد خطيبته في انتظاره في كامل زينتها فجلس مع أهلها بضع دقائق ثم استأذن في الخروج معها.

راحة القلب تبدأ حقا حين يخرجان من باب العمارة فتتشابك اذرعهما، ويمضي الوقت جميلا سعيدا بلا حساب.. عرفها وهو طالب بالسنة النهائية بالكلية الحربية.. وهي طالبة بكلية التربية البدنية وتم تعارفهما في محل للحلوي والجاتوه بوسط المدينة. جمعت بينهما المصادفة وتعاهدا علي الارتباط، تخرج من كليته وعمل خارج القاهرة.. وتخرجت بعده وعملت مدرسة، وتوجا الحب بالخطبة والاستعداد للزواج. قالت له أمه حين اراد خطبتها معترضة:

ليست جميلة.. بالمرة وانت وسيم وألف فتاة جميلة ترحب بك فلماذا تحكم علي نفسك بعشرة فتاة غير جميلة قد تملها بعد ان يهدأ الحب.. وتتلفت حولك باحثا عما ينقصك؟

فغضب لاهانة الحب ودافع عن فتاته بكل قواه.

أما ابوه فقد قال : الجمال مسألة شخصية تخصه . . ولاشأن لنا بها . . المهم ان تسعده وان تكون من اسرة طيبة . . وكم من فتاة جميلة شقي بها زوجها ، وكم من فتاة غير جميلة سعد بها زوجها .

ثم جاءت تحرياته عن أهلها مؤكدة جدارتهم بالمصاهرة فمنحه تأييده بلا تحفظ ، وتمت الخطبة وتنازلت الأم عن معارضتها الواهية إكراما لابنها ورحبت بخطبته . . بل واستراحت بعد قليل الي طيبتها وروحها الودود الوادعة . . مع ذلك فكثيرا ما تعجبت للهفته عليها رغم ما تراه من افتقارها للجمال !

غادر الخطيبان سيارة الأجرة في وسط المدينة . . فاتجها الي محل الجاتوه والحلوي الذي تعرفا فيه لأول مرة وتناولا واقفين بعض قطع الجاتوه وهما يتضاحكان ، برنامج الحب كل اسبوعين يبدأ عندهما دائما بهذا المحل الذي جمع بينهما علي غير انتظار . غادراه فسارا في شارع سليمان ببطء وهما يتهامسان وتواصل حديثهما بلا انقطاع . توقفا أمام دار سينما مترو واستعرضا صور الفيلم المعلقة علي جدرانها . . وتشاورا هل يمضيان الأمسية في دار السينما . . أم يتجولان بلا هدف حتي نهايتها وقررا دخول السينما ، لايختلف الأمر عندهما كثيرا ففي داخل دار العرض سوف يتواصل همسهما وضحكهما الخافت الي ما لا نهاية وقد يخرجان منها دون أن يعيا شيئا كثيرا من احداث الفيلم ، فكل شيء جميل في صحبة من تحب وحتي أفلام الكارتون التي تسبق عرض الفيلم تلقي لديهما صدي اكثر بهجة من صداها لدي الاطفال .

انتهي عرض الفيلم وغادرا السينما . . فتمشيا حتي كوبري قصر النيل ثم ركبا سيارة اجرة فأعادها الي بيتها وعاد سعيدا منتشيا الي بيته .

سيمضي معها كالعادة ظهر يوم الجمعة ويتناول الغداء علي مائدة اسرتها وستخرج معه الي محطة القطار . . وتجلس معه في بوفيه المحطة يشربان الشاي ، ثم تودعه علي رصيف القطار حتي يغيب عن الأنظار .

الحب شيء ثمين يستحق العناء من أجله فلا بأس اذن بأن يتحمل انتقاد أمه وشكواها الدائمة من انه يقضي من اجازته مع «الهانم» اكثر مما يقضيه مع أبويه ، ولا بأس أيضا بأن يتحمل راضيا سخريتها الخفيفة وتساؤلها الدائم عن سر «السحر» الذي سحرته به هذه الفتاة ليظل ملهوفا عليها هكذا .

الحب سحر في حد ذاته يا أمي . . وليس في حاجة الي جهد دجّال ، أما «الجمال» الذي تلمحين اليه كلما تساءلت هذا التساؤل فليس لي من جواب عليه سوي أني أراها أجمل الجميلات . . وان لم تصدقيني فخذي عيني وانظري اليها بها !

استراح لأفكاره ففتح الباب ودخل الي مسكنه فوجد ابويه جالسين في الصالة في مجلسهما المعهود أمام التليفزيون ، وتلقي نظرة أمه العاتبة وعبارتها الموحية «حمداً لله علي السلامة» باسما ، ثم دخل الي غرفته ليغير ملابسه . . قال لنفسه وهو يخلع قميصه ، أمي طيبة وتحبني . . وهي نفسها مثال «للحب» الذي تتعجب منه ، لكن حب الأم لابنائها قد

ينسيها أحيانا بعض حقوقهم في الحب.. ويثير حبهم للأخريات غيرتها الغريزية! كل تصرفاتها تنطق بحبها لأبي.. وكل تصرفات أبي تؤكد نفس الشيء.. حتي أنا لم أفهم مغزي مبادرتها بطلب التقاعد من عملها حين أحيل أبي للمعاش إلا حين شرحته لي فتاتي وقالت لي انه أكبر دليل علي الحب العميق.. وجلستهما الآمنة أمام التليفزيون كل مساء التي يظللها دائما العطف والفهم مثال آخر للحب، و«أماني» لم تتزوج إلا من أحبت، وحين اعترض أبي علي خطبتها لمن تزوجته بسبب اعتزامه الهجرة قالت له أمامي:

انها تحبه وسوف تهنأ معه في اي مكان يعيش فيه فلا تقف في طريقها.

ومازالت بأبي حتي تنازل عن معارضته.. فلماذا اذن تنكر علي الحب؟

طالت غيبته بعض الشيء في غرفته فقالت الأم لزوجها:

- لم يسترح من عناء السفر.. وانهكته «الهانم» بالخروج والنزهة وليتها كانت جميلة بعد كل هذا العناء.. لكنه أعمي!

فداعب الأب مسبحته وقال لها مصطنعا الجدية:

«العمي» مرض وراثي في اسرتي.. ألا ترين أنني أحببتك حين خطبتك.. وظللت علي حبي لك حتي الآن.. رغمْ انك لم تكوني جميلة؟

فلم تتمالك نفسها من الضحك والابتهاج لكلماته وقالت له راضية:

- سأتجاوز عن «طول اللسان» مقابل الكلام الحلو الذي سبقه.. وربنا يكرمك!

فربت علي يدها مشجعا، لم تكن جميلة؟ لقدْ كانت اجمل الجميلات.. ومازالت رغم تجاوزها الخمسين بعامين متعة بصري.. واطمئنان قلبي.. ورفيق عمري.. اختلطت خيوطي بخيوطها فجدلت حبلا واحدا يصعب قصمه، ووقفت الي جواري في كفاح الشباب وفي كل محن حياتي.. وواستني في احزاني.. وسعدت بأفراحي.. وتوجت كل ذلك بطلبها التقاعد مختارة حتي لاتدعني للوحدة والفراغ حين أحلت للمعاش لم أطلب منها ذلك بل وعارضتها فيه لكنها غلبتني بحكمتها وقالت لي:

عملت بما فيه الكفاية ومعاشي ومعاشك يكفلان لنا حياة كريمة.. وابناؤنا تخرجوا وعملوا.. وآن لنا ان نستمتع بصحبتنا وحياتنا معا التي شغلتنا عنها الشواغل والأعباء، كما انني لن اسعد اذا تركتك وحيدا في الشقة في الصباح..

فرفعت يدي مسلما بحجتها.. واضفت صنيعها الي رصيدها الكبير عندي.

عاد الابن الي الصالة.. فنهضت الأم لاحضار بضعة سندوتشات خفيفة مع الشاي.. وتناولوا طعامهم هانئين.. وهم يتسامرون

ويتنقلون بين السمر وبين مشاهدة تمثيلية السهرة في التليفزيون . . ومضي الوقت رخيا طيبا حتي قطعت الأم مشاهدتها التليفزيون بسؤال ابنها فجأة :

برضه . . لن تتناول طعام الغداء معنا غدا؟

فاحمر وجه ابنها الشاب ولم يجد ما يقوله واشفق عليه الأب فنظر الي زوجته من خلف ظهر ابنه محذرا ومنبها وادركت الأم ما اثارته من حرج في نفس ابنها وارتبكت قليلا ثم قالت كأنما تجيب علي نظرة زوجها :

ربنا يعمل ما فيه الخير!

ونهضت الي غرفة نومها ، فالتفت الأب الي ابنه وقال له :

امك ذهبت للنوم . . فاحك لي يابطل ماذا فعلت الليلة مع خطيبتك؟

وتورد وجه الشاب بالبشر وراح يحكي لأبيه وهو صديقه الحميم تفاصيل لقائه بخطيبته وما دار بينهما من حديث . . حتي حديث الحب . . والأب يسمع باهتمام وتشجيع الي ان سمعا صوت الأم من غرفة نومها تنادي الأب :

حسين . . ألن تأتي للنوم بعد؟

فنهض الأب متثاقلا وهو يقول لابنه الشاب باسما :

«الهانم» تناديني من الداخل . . عن اذنك!

فضحك الابن من قلبه وتبادل مع أبيه تحية المساء .

ثم راقبه وهو يتجه بجسمه الطويل الذي لم يوهنه السن وانما بدا في مرحلة الشيخوخة أكثر مهابة وجلالا . . ونظر اليه طويلا وهو يغيب خلف باب غرفة النوم . . نظرة ملؤها الحب . . والإعجاب . . والاحترام!

(٥)

الجانب الآخر!

الجانب الآخر!

□ كالخيط الفاصل بين عالمين يقع هذا المزلقان الذي يهبط حاجزه المتحرك في مواعيد محددة ليمنع عبور المشاة والسيارات عند مرور القطار، فعلي الناحية اليمني منه بيوت صغيرة ومبان عشوائية فقيرة وشوارع مترِبة، وعلي الناحية اليسري شوارع لامعة وعمارات حديثة ومحلات باهرة الديكور والأضواء. كانت الناحيتان منذ سنوات قريبة حيا واحدا يشترك في كل السمات فزحف العمران علي الناحية اليسري وأُزيلت البيوت الصغيرة وأقيمت العمارات الشاهقة ورصفت الشوارع وانتقل اليها سكان جدد.. وبقيت الناحية اليمني علي حالها يسكنها البسطاء.. وتكثر في المشاكل.

وكان هو من سكان الناحية اليمني، شابا مكافحا أنهي تعليمه فوق المتوسط بمشقة والتحق بوظيفة حكومية.. وتزوج من فتاة بسيطة طيبة وطاف بأحياء المدينة باحثا عن سكن رخيص فلم يجده إلا في هذه الناحية الفقيرة.

عاش مع زوجته حياة هادئة يعبر كل يوم علي قدميه المزلقان الفاصل ليركب اتوبيس الهيئة الحكومية الذي يمر بالجزء اللامع من الحي ويعود في المساء فيعبره مرة أخري الي بيته وزوجته وابنتيه . سنوات وراء سنوات وهو يعبر هذا المزلقان دون أن يخطر له أن يفكر يوما فيما يمثله من حواجز وفواصل بين عالمين كانا قبل سنوات عالما واحدا . ثم رحلت زوجته الطيبة عن الحياة فجأة وهو في الاربعين من عمره فانطوي علي أحزانه واحتضن ابنتيه يفرغ فيهما حنانه وواصل طريقه في الحياة متصبرا .

مضت خمس سنوات كاملة علي وحدته اقتربت خلالها بنتاه من سن الشباب فتضاعف احساسه بافتقاد زوجته ودورها الهام في رعاية ابنتيه في هذه السن الحرجة . فتساءل متحيرا . . أين المعين؟ الكبري منهما صورة شديدة الشبه بأمها في ملامحها وتفكيرها العملي وحسن ادارتها لشئون البيت ، والصغري صورة أخري منها في حنانها وعاطفتها الدافقة تجاه الجميع فكأنهما تقاسمتا مزايا الأم الراحلة وجددتا أحزانه بفقدها .

علمته أيام الوحدة الكثير مما كان يجهله . . فعرف الكثير من شئون الفتايات وشئون البيت وتعجب كيف كانت زوجته الوديعة تدبر حياتهم بدخله المحدود بلا شكوي ولا اعتراض . وفي خجل وتحفظ بدأ يسأل زميلاته في العمل عما ينبغي له أن يفعله مع ابنتيه ليحميهما من ألاعيب الذئاب . وتوالت عليه النصائح المخلصة ، اقترب من ابنتيك أكثر . . شجعهما علي ألا تخفيا عنك سرا ولو كان مخجلا . . وان تستشيراك في كل شيء حتي في شئون القلب لكيلا تتخبطا في بحر الحيرة بلا دليل .

ومتسلحا بهذه النصائح الغالية حاول جاهدا ان يقوم بدور الأم الغائبة في حياة ابنتيه ، لكن هيهات أن يطمئن قلبه الحزين الي نجاحه .

وذهب الي العمل ذات يوم فوجد في الادارة وجها جديدا لسيدة في أواخر الثلاثينيات من عمرها مريحة الجمال وترتدي فستانا قاتم اللون . وقدموه لها فعرف انها زميلة جديدة نقلت الي ادارتهم منذ قليل ، فتصافحا باحترام ثم انشغل كل منهما بعمله ، لم يتذكرها بعد ذلك إلا حين انصرف من الادارة الي موقف اتوبيس الهيئة ورآها تركب سيارة حديثة تقودها . في الطريق استرجع صورتها . . ومسحة الأسي الخفيفة في وجهها وربط في خياله بينها وبين لون فستانها القاتم فقدر انها ارملة مهمومة بشئون ابنائها بعد رحيل الأب وقال لنفسه :

ما أكثر المهمومين في هذه الحياة .

أفاق من أفكاره حين رأي سيارتها من نافذة الاتوبيس تمضي في نفس الطريق . . وتابعها بعينيه لفترة . . ففوجيء بها تدخل نفس الحي الذي يقيم فيه علي الناحية اليسري منه .

بعد أيام رآها تتحدث عن متاعب قيادة السيارة في زحام المدينة وقت الظهيرة وتسأل عن كيفية الاشتراك في اتوبيس الهيئة ، فنهض من وراء مكتبه في أدب واصطحبها الي الادارة المختصة وجامله زملاؤه فيها بإنهاء الاجراءات في ثوان . . فشكرته بحرارة ، وفي اليوم التالي توقف الاتوبيس في الصباح عند نقطة جديدة في الجزء اللامع من الحي . . وصعدت

الزميلة الجديدة واتجهت بتلقائية الي المقعد الخالي بجواره. تكررت اللقاءات في رحلة الذهاب ورحلة العودة.. وأحس بعد فترة بارتياحها الي صحبته فتجرأ واستشارها في شأن محير من شئون ابنته الكبري فاستمعت له باهتمام وأخلصت له المشورة.

ويوماً احتاجت هي الي خبرته في شأن يتعلق بمدرسة ابنها فلم يكتف بالمشورة وانما حمل أوراق الابن وتوجه للادارة التعليمية وأنهي مهمته علي مايرام واستحق شكرها العميق. تواصلت الأحاديث بينهما ففهم سر ألوانها القاتمة في ملابسها وفهمت سر ربطة العنق القاتمة التي يرتديها دائما. وعرف انها ارملة طبيب توفي تاركا لها ولدا وبنتا أكبرهما في الثانية عشرة، وأنها تواجه مشاكل دائمة مع أسرة زوجها بشأن ميراث الأبناء وتدخلات الأهل في حياتها بعد رحيل زوجها. وجمعت بينهما الهموم المشتركة.. فاعترف لنفسه انه قد أصبح بعد ظهورها في حياته أكثر اقبالاً علي الحياة وأكثر تحملا لمتاعب الوحدة. وفي لحظة ضعف حكي لابنتيه عنها فتشوقتا لرؤيتها وتردد طويلا قبل أن يفاتحها برغبة ابنتيه لكنها رحبت بتلقائها ودعت الجميع الي فنجان شاي أصيل يوم الجمعة في النادي القريب.

في الموعد المحدد توجه الثلاثة الي النادي ففوجيء بابنتيه تندفعان الي عناقها كأنما تعرفانها منذ زمن طويل وجاش صدره بالانفعال والتأثر وهو يري حرارة ترحيبها بهما وتآلفها السريع معهما. أما ابنها وابنتها فلقد صافحا الجميع بأدب وتحفظ وانصرفا الي ملاعبهما. انفتحت له بعد

اللقاء قناة جديدة للاتصال بها فقد تبادلت الفتاتان معها رقم التليفون.. وبدأت الاتصالات بينهن، وأصبحت الارملة الشابة حديثا مألوفا في بيته.

بعد أيام دعتها الفتاتان الي الغداء يوم الجمعة. فتحرج من مسكنه المتواضع وبيته القديم والحي الشعبي الفقير، وتساءل مهموما الي أي حد سوف يؤثر واقعه البسيط علي نظرتها اليه. لكنها لبت الدعوة وأمضت الوقت بينهم مبتهجة وان كانت قد جاءت وحيدة بغير ابنيها وبعد اسبوع ردت لهما الدعوة فذهبوا الي بيتها في الجانب الآخر من الحي ولاحظ هو باشفاق خفي العمارة الحديثة التي تقيم فيها.. والشقة الفاخرة والأثاث الباهر واستشعر بعد «المسافة» بينهما رغم قرب مسكنيهما! ويوما سألته ابنته الكبري.. لماذا لاتتزوج من «طنط» مديحة يا أبي وهي سيدة لطيفة وجميلة وتحبنا!

فخفق قلبه للسؤال البريء وكتم آلامه في صدره، وهمّ في اليوم التالي ان يصارح زميلته بمشاعره ورغبته في الارتباط بها.. لكنها بادرته بالحديث عن مشكلة جديدة ظهرت في حياتها هي رغبة أهل زوجها في أن تبيع شقة المصيف الغالية في المعمورة ليضاف ثمنها الي رصيد ولديها في البنوك واعتراضها علي مبدأ البيع ورغبتها في الاحتفاظ بالشقة فماتت جرأته في مهدها.. وشاركها الحديث بذهن غائب.

ليست من عالمي.. ولست من عالمها.. وما هي رغم طيبتها

وتواضعها إلا من السيدات اللاتي يعملن لشغل الفراغ وقتل الملل . . فلماذا يتعلق القلب بالأمل الصعب فيها؟ لكن نداء القلب قاهر . . فما أن روت له بعد أيام وهو يوصلها الي بيتها سيرا علي الأقدام أن متاعبها مع أسرة زوجها ليست هي كل المتاعب وأن أسرتها تلح عليها في قبول زوج مرموق كان زميلا لزوجها الراحل ولديه من الامكانيات ما يساعدها علي ضمان أفضل مستقبل لابنيها . . حتي انفلتت من عينه دمعة صامتة . . وأطرق برأسه خجلا . . فكفت عن الحديث متحرجة وانصرف صامتا .

وفي اليوم التالي بادرته هي بالحديث فأكدت له احترامها له وميلها اليه . . وارتياحها لصحبته . . لكنها لاتستطيع تحمل المشاكل التي ستواجهها من جانب أهل زوجها اذا هي استسلمت لمشاعرها ووافقت علي الارتباط به وأكثرها توقعا انتزاع ولديها منها . . أو حرمانها من الوصاية عليهما لهذا فلا حل لمشكلتهما الآن إلا أن يدعاها للزمن!

وتقبل الأمر الواقع صاغرا . . لكن مرور الأيام يزيد من احتياجه اليها وتليفون المساء لم يعد قادرا وحده علي تلبية كل احتياجاته العاطفية والنفسية منها . . ولم يطق صبرا فعاد يسألها بعد أسابيع :

هل تقبلين زوجا لايملك إلا حبه لك ورغبته في أن يسعدك ويسعد بك؟

فتجمعت سحب الهموم في وجهها وأطرقت صامتة .

واعتبر صمتها رفضا مهذبا لحبه وآماله . . فانصرف حزينا وعاقدا

العزم علي أن يبتعد عنها، لكن تليفون المساء جاء في موعده . . فنسف ارادته وعاد يتعلق من جديد بالأمل فيها . ويوما أثبتت له صدق مخاوفها فاستجابت لرغبته في أن يتقدم لأبيها بطلبه وحددت له موعدا معه . . وذهب اليه في بيته ووجدها عنده فتشجع بوجودها وصارحه برغبته فقابله الأب بأسئلة هجومية محرجة عن أملاكه وايراده ودخله السنوي ومسكنه والحي الذي يقيم فيه وسيارته . . . الخ . . فتصبب عرقا وهو يجيبه بأنه لايملك سوي مرتبه ولم يرحمه الأب وإنما طلب منه بقسوة عجيبة أن يطرد هذه الفكرة نهائيا من ذهنه لأنه لايصلح لابنته اجتماعيا ولا ماديا . . وقارن بلا حياء بين ظروفه وظروف «الآخر» المرموق الذي ترفضه ابنته . . وطلب منه أن يحكم عقله وضميره لو كان في مكانه ويحدد له أيهما يقبله لابنته وأيهما يرفضه؟ ولم يخفف تدخلها بينهما في الحديث ولا لومها لأبيها من وقع كلماته القاسية عليه فانصرف مستخزيا!

قال لنفسه: مثيلاتها يتزوجن من يردن بغير اعتماد كبير علي موافقة الأهل فلماذا تقف هي عاجزة عن الإقدام؟ . . وصارحها بأفكاره فصارحته بأنها لاتستطيع مواجهة متاعب اسرة زوجها بغير مساندة اسرتها لها ولاتستطيع أن تفقد رضا الأسرتين معا!

ويوما اشتدت عليه آلامه فبكي بين يديها واتهمها بأنها تعطي لهذه الاعتبارات المادية نفس الأهمية التي يعطيها لها الأهل . . ولو لم يكن الأمر كذلك لما ترددت أمام الزواج وقبول المتاعب، فأجابته في حزن بأنه يطالبها بالكثير الذي لاتستطيع أن تقدمه!

وانتهي اللقاء العاصف في سيارتها بأن طلب منها ألا تتصل به مرة أخري وأن تتجنب الركوب في أتوبيس الهيئة . . وأن تتجاهله في العمل لكي تعينه علي نسيانها واخراجها من حياته ووافقته دامعة علي ما يريد .

وفي اليوم التالي اعتكف في بيته وأمضي اليوم عليلا راقدا في فراشه . . حتي عادت ابنتاه من المدرسة .

وأرسل الي عمله يطلب أجازة ولازم البيت لايخرج منه ولايستجيب لمحاولات ابنتيه للتسرية عنه .

وفي اليوم السابع جلس في شرفة شقته المتواضعة يشرب القهوة . . ويتأمل شوارع الحي المتربة المزدحمة بالباعة الجائلين والبشر . . ويرنو الي الجانب اللامع منه . . ويرقب عماراته العالية الزاهية بألوانها ويحاول أن يحدد موقع بيتها بينها . . ويتخيلها فيه . . ويتصور ماذا تفعل في هذه الساعة ، ويستعيد مشاهد قصته معها منذ رآها لأول مرة . . فمال بعد تفكير طويل الي ألا يظلمها ويحملها ما لا طاقة لها به . . والتمس لها بعض العذر في ظروفه غير المواتية ، وفي ظروفها المعقدة . . وحن حنينا دافقا الي صوتها العطوف . . وحديثها الصادق فرن جرس التليفون فجأة بجواره ورفع السماعة وسمع صوتها الحبيب يتساءل في حذر وخوف :

هل مازلت غاضباً مني؟

فتنهد بارتياح شديد وقال لها صادقا وهو يرقب المزلقان الذي نزل

حاجزه الأحمر وتعالي منه صوت جرس التحذير ففصل بين جانبي الحي استعدادا لمرور القطار الوشيك :

لا، لم أعد غاضباً منك لحظة واحدة . . لكني مازلت غاضبا . . بل وشديد الغضب والألم . . من «المزلقان»!

ساعات الصباح!

ساعات الصباح!

□ انتهت من ارتداء ملابس الخروج.. ألقت نظرة أخيرة على وجهها في المرآة ومسحت بإصبعها تحت جفنها كأنها تريد أن تزيل ما بدا لها بداية التجاعيد.. اطمأنت إلى هيئتها وجمال وجهها الحالم دائماً فأمسكت بحقيبة يدها وتوجهت نحو باب الشقة. ركبت سيارتها الصغيرة وتحركت بها وهي تسأل نفسها كعادتها كل يوم:

إلى أين أذهب هذا الصباح؟

سؤال تسأله لنفسها كلما غادرت بيتها في الصباح، فهي لاتعمل ولم تنجب وليس في حياتها سوى زوجها المشغول بعمله حتى الخامسة مساء. في سنوات الزواج الأولى كانت تنهض متأخرة من النوم فتجد زوجها قد تناول افطاره وغادر البيت، فتمضي فترة الصباح متكاسلة.. ترتب الشقة.. تسقي النباتات.. تتناول افطارها أمام التليفزيون، تتسلى بمتابعة علاقات أبطال التمثيليات المسلسلة وتتعاطف مع

التعساء والمظلومين منهم. تنتظر زوجها في المساء.. تتناول معه طعام العشاء يستريحان بعض الوقت ثم ترتدي ملابسها ليخرجا معا الي زيارة عائلية أو الي السينما.. أو النادي. سلمت منذ وقت مبكر بالتنازل عن حلمها في انجاب طفلة تربيها وتشاركها اهتماماتها. ادركت استحالة تحقيق الحلم بعد جولة عصيبة داخل عيادات الأطباء ومعامل التحليل. نظر اليها زوجها خجلا.. وأحني رأسه وهو يعرض عليها الانفصال، لكي تبدأ حياة جديدة مع آخر ليس محكوما عليه بالحرمان من الانجاب، وبكت طويلا واعتبرت عرضه انهزاما للحب وتخلياً عنه. قال لها: ستطول وحدتك في فترات غيابي في العمل فقالت له انها تشغل نفسها بما يعزيها عن افتقاد الاطفال. تعلمت الرسم علي الزجاج وتلقت دروسا فيه شغلت بها ساعات الصباح. تعلمت صناعة الأباجورات وصنعت عدة تحف منها زينت بها بيتها. اهتمت بنباتات الظل.. وقرأت عنها كثيرا لتعتني بها. نثرت أصص النباتات والورود في كل مكان من الشقة، زارت مشاتل النباتات في اطراف المدينة وعرفها أصحابها فخصوها بأفضل ما عندهم. ادمنت مشاهدة التليفزيون والفيديو.. وسماع الموسيقي.. ترددت علي النادي في الصباح في بعض الأحيان.

لكنها فقدت مع مرور السنين قدرتها علي النوم حتي الضحي، وأصبحت تنهض من فراشها مع الفجر، فتؤدي صلاتها.. وتنشغل بعمل البيت واعداد طعام اليوم ويخيل اليها ان النهار قد انتصف وتنظر الي ساعتها فتجدها لاتزال تزحف نحو الثامنة صباحا! تسأل نفسها ماذا

أفعل بعد ذلك في بقية النهار؟ زوجها ينهض من نومه في الثامنة.. تتناول معه الافطار والقهوة ثم يخرج الي عمله في التاسعة.. فتسأل نفسها.. وماذا بعد؟

ترقب من النافذة أطفال الجيران وهم يغادرون العمارة بملابس المدرسة الجميلة ومعهم أمهاتهم.. فتسرح أفكارها بعيدا وتتخيل نفسها توقظ «طفلتها» من النوم في الصباح فترفض مغادرة الفراش لأنها لم تشبع بعد من النوم.. فتظل تلح عليها حتي تغادره كارهة وساخطة، تدفعها دفعاً الي الحمام.. وتعد لها شطائر المدرسة و«ترموس» الماء وتعينها علي ارتداء ملابسها وتسرح لها شعرها فتسخط كل يوم لانها تصفف لها شعرها بعنف يضايقها.. ثم تسحبها من يدها وتنزل بها الي الشارع وتقف علي ناصيته مع الامهات الأخريات حتي يجيء اتوبيس المدرسة تتبادل معهن «الشكوي» من متاعب الاطفال واضطرارها للنزول كل يوم في عز البرد لتصحب صغيرتها الشقية الي اتوبيس المدرسة. ترجع مع جاراتها وهن يتجاذبن أطراف الحديث ويتبادلن طرائف اطفالهن الي العمارة وتمضي ساعات الصباح في عمل البيت وهي ترقب موعد عودة الاتوبيس لتكون في انتظاره في نفس المكان، ثم تصطحب ابنتها الي الحمام مباشرة رغم اعتراضها وصراخها طالبة الطعام. تغسل لها وجهها ويديها ثم تجلس معها علي المائدة لتناول الغداء.

فات الأوان لتحقيق الأمنيات ولم يبق للنفس إلا عزاء الأحلام في دنيا الخيال. تتعجب من سخط جارتها الدائم علي أطفالها وشكواها التي

لاتنقطع من متاعب خدمتهم ومتابعة دروسهم وامراضهم ونفقاتهم ومطالبهم وكيف تتحين الفرص لافتعال المشاجرات مع زوجها فتهجره الي بيت أمها اسبوعا أو أكثر ثم تعود. تلتقي بها أحياناً علي درج السلم وتسألها عما أغضبها، فتعترف لها ضاحكة في بعض الأحيان بأنه لم يكن هناك ما يستحق الغضب، والهجر لكنها رأت في ذلك اجازة قصيرة من متاعب الأولاد! تعجب لأن يضيق الانسان أحيانا «بأسباب السعادة» لكن هكذا تمضي الأمور في بعض الأحيان.

شكت لزوجها من ضيقها بساعات الصباح التي ينشغل عنها خلالها في عمله، فأطرق حائراً ولم يحر جواباً. لا يقصر في رعايتها والاهتمام بها لكن ماذا يفعل ليعوضها غيابه خلال ساعات العمل؟. انه يعتذر عن مهام العمل خارج المدينة التي تبعده عنها ما لم يتح له ان يصطحبها معه فيها. لو استطاع ان يمارس عملا في بيته يدر عليه ما يكفل له ولها حياة كريمة لما تردد. لكن عمله هو مورد رزقه الوحيد وساعاته الطويلة هي سر مرتبه الكبير. يغادر البيت في التاسعة صباحا ويعود في الخامسة مساء ولامفر من ذلك فماذا يفعل؟ عرض عليها أن تلتحق بأي وظيفة لشغل أوقات فراغها ففشلت في الاستمرار في أول عمل مارسته اكثر من شهرين ونفضت يدها منه يائسة من تجربة العمل نهائيا. شجعها علي الذهاب الي النادي واشتري لها بكل مدخراته سيارة صغيرة بالتقسيط.. فترددت علي النادي بضع مرات ثم زهدت فيه.

ثم فجأة اصبحت لاتطيق وحدتها بين جدران بيتها في ساعات

الصباح. سئمت مشاهدة التليفزيون ومسلسلات الصباح. ملت الرسم علي الزجاج وصناعة الأباجورات. كرهت الموسيقي.. لم يبق لها من هواياتها القديمة سوي القراءة.. والسرحان الطويل.. وسقي النباتات وتأملها لفترات طويلة.. يغادر زوجها البيت فترتدي ملابسها وتتأمل وجهها في المرآة قليلا ثم تركب سيارتها وتسأل نفسها: الي أين؟ مشكلتها اليومية هي أن تجد «مهمة» تؤديها أو زيارة تقوم بها أو مكانا تزوره فيجدد اهتمامها بالحياة. تتردد كل يوم هل تزور أمها أم بيت شقيقها أم تذهب الي المشتل؟

لابد من قرار قبل أن تتحرك السيارة فما هو القرار؟ يطول بها الانتظار وهي جالسة داخل السيارة فيأتيها المنادي يسألها:

هل كل شيء علي مايرام؟

فتجيبه بنعم ثم تدير سيارتها وتمشي بها علي غير هدي.

الهيئة الاجنبية التي يعمل بها زوجها تعطي العاملين نصف ساعة فقط لتناول الغداء في الثانية عشرة ظهرا فيتناولون الشطائر في مقصف الهيئة، ذهبت اليه بضع مرات لتراه في هذه الاستراحة وتشرب معه القهوة، لكنها لم تستطع مواصلة الزيارة لأن مدير زوجها لفت انتباهه الي منع الزيارات خلال يوم العمل.

قادت سيارتها ذات يوم الي فندق كبير تطل شرفته علي منظر جميل وجلست تشرب القهوة وتتفرج علي زحام الطريق، فاقترب منها رجل

أنيق وابتسم وقبل أن يهم بالكلام كانت قد تركت ثمن القهوة علي المائدة وأسرعت بمغادرة المكان. تمنت لو كانت لها صديقة خالية من الأعباء تستطيع أن ترافقها في جولات الصباح وتحتمي بوجودها معها لكن كيف السبيل وكلهن موظفات أو أمهات مرهقات بأعباء الأطفال.

متاجر وسط المدينة هي هدفها في أغلب الأيام. تتخير المتاجر الكبيرة التي لا يلاحق البائعون فيها المشتري بالسؤال عما يرغب في شرائه ثم تدخلها فتتجول بين أقسامها لفترات طويلة وقد تشتري شيئا.. وقد تكتفي بالفرجة وقتل الوقت. في أحد هذه المتاجر اصطدمت ذات يوم وهي غائبة الذهن بشخص وسيم وأحست بالخجل.. وهمت بالاعتذار له فبادرها هو بالاعتذار مبتسما. وقبل أن تتحرك منصرفة قال لها:

في خدمتك يا هانم أنا مدير هذا المحل..

شكرته بحياء وهمت بالتحرك.

فقال لها مرة أخري:

اذا أعجبك شيء لاترددي في الحضور الي مكتبي في نهاية هذه الصالة لأجري لك خصما طيبا علي سعره. وهذه بطاقتي!

تناولتها محرجة وشكرته وانصرفت وعادت الي سيارتها، نظرت الي البطاقة بضع ثوان ثم ألقتها باهمال في «تابلوه» السيارة.

روت لزوجها في المساء ماحدث فضحك وطالبها بمزيد من الاحتراس

ضد نوبات السرحان. بعد اسبوعين وجدت نفسها تدخل نفس المتجر الكبير وتتجول في أبهائه ووقفت أمام مرآة ورف يصلحان لمدخل شقتها وراحت تتأملها طويلا ففوجئت بصوت يأتي من خلفها قائلا:

هل تعجبك هذه القطعة؟ اذا رغبت فيها سأقدم لك تسهيلات مغرية في الدفع؟.

والتفتت فرأته وشكرته وتحركت لتنصرف فقال لها بأدب:

لم تسأليني عن التسهيلات. فابتسمت في خجل فواصل الحديث كأنما يجيبها علي سؤالها:

سأقدم لك خصما ٢٠٪ وأقبل بيعها لك بالتقسيط علي عام.. فماذا ترين؟.

فأجابته:

سأفكر في الأمر واتصل بك.

لكنه لم يدعها لنفسها فقال لها:

لماذا لاتتفضلين بالذهاب معي الي مكتبي لأعرض عليك كل التسهيلات؟

وقبل أن تجيب بالرفض أو القبول كان قد تحرك في اتجاه مكتبه وهو يقول لها:

تفضلي يا هانم.

ولم تجد مفرا من أن تتبعه. وجاء الساعي علي الفور بفنجان القهوة فأمسكت به وهي تحس بنظرات الآخر ترقبها في اهتمام. قال لها:

انه يعرف من يترددون علي متجره بكثرة وانه رآها مراراً داخله، وأحس بأنها تعاني من الفراغ وتقطع الوقت بزيارة المحال.. فاذا كان ما فهمه صحيحا فلماذا لاتشغل وقتها بعمل مفيد؟

وسألته:

مثل ماذا؟

وأجابها بلا تردد:

كأن تعملي سكرتيرة لي. انني أحتاج إلي سكرتيرة محترمة مثلك تنظم لي وقتي ومقابلاتي وأوراقي. وفشلت تجربتي مع الفتيات الصغيرات المشغولات بأنفسهن ولن يرهقك العمل كثيراً فهو من التاسعة صباحاً حتي الثالثة بعد الظهر وفي فترات المساء يساعدني سكرتير آخر. وسيكون المرتب مناسبا.

ففكرت لحظات ثم وعدته بأن تفكر في الأمرين معاً!

غادرت المتجر الكبير مشغولة البال بما عرضه عليها صاحبه أو مديره.. لماذا يعرض عليها العمل معه.. وهو لايعرفها ولا تعرفه؟.. وماذا يريد منها؟ انه رجل وسيم أنيق يجيد الكلام الحلو وابتسامته تسبق كلامه دائماً. وهو متزوج بغير شك فهو في الاربعين من عمره علي

الأقل.. ودبلة الزواج تلمع في يدها ولايمكن أن تخفي علي لماحيته فماذا يريد منها؟ اعتزمت ألا تعود إلي هذا المتجر مرة أخري وان تتجنب زيارة المتاجر الملاصقة له حتي لاتصادفه في طريقها اليها.. ومضي اسبوع لم تقترب فيه من المتجر. ثم ضاقت بفراغ الصباح مرة أخري فركبت سيارتها إلي نفس الشارع التجاري ونزلت تتجول بين محاله.. وتنقلت من محل إلي آخر ووقفت أمام فاترينة أحد المحال القريبة تتأمل معروضاتها.. ثم قررت دخوله لتسأل عن شيء عنّ لها، واتجهت إلي البائعة وانشغلت بالحديث معها لحظات ففوجئت بصوت يقول لها مرحبا:

ـ أية خدمة يا هانم؟

التفتت ناحية الصوت بطريقة تلقائية فوجدته أمامها مرة أخري بابتسامته العريضة.. ولم تخف دهشتها وحرجها.. وبادرها هو موجها حديثه للبائعة بلهجة آمرة:

اهتمي بطلب السيدة.. وقدمي لها خصما ٢٥٪ علي الثمن!

وأحنت البائعة رأسها مؤكدة الاستجابة.. وبالغت في احترام السيدة وارضائها.

وانسحب هو من موقفها.. وابتعد قليلا ووقف يتحدث مع شخص آخر ورمقته البائعة عن بعد ثم همست لها وهي تعرض عليها معروضاتها:

هل تعرفين الاستاذ عصام؟

فأجابتها بأنها لاتعرفه سوي معرفة عابرة من خلال زياراتها للمحل الذي يديره.. وبعد تردد سألتها عن علاقته بهذا المحل.. ففسرت لها الأمر بأنه شريك فيه وانه وشقيقه يملكان هذين المحلين مع ٣ شقيقات وينفرد كل منهما بادارة أحدهما. وكأنما أحست البائعة بأنها لاتعرف عنه الكثير فقالت لها:

انه مطلق منذ ٣ سنوات وقد انفصل عن زوجته التي انجب منها طفلين وتزوجت غيره وهو يبحث عن زوجة تحب الأطفال لترعي طفليه.. وختمت حديثها بهمسة لها مغزي قائلة لها انها لاحظت «اهتمامه بها» علي عكس حاله في الظروف العادية!

تنبهت حواسها لما سمعت رغما عنها وسألتها باهتمام بدا غريبا للبائعة:

وأين يعيش الطفلان؟

فأجابتها بأنه قد استردهما من مطلقته عقب زواجها ويعيشان في رعاية أمه السيدة المسنة ويتردد عليهما من حين لآخر!

وغادرت المحل مضطربة المشاعر.

وبعد اسبوع زارت المتجر الأول في الصباح.. وتهلل المدير الوسيم لرؤيتها.. وأقبل عليها مرحبا وهو يتساءل:

هل قبلت العمل معي؟

وأبهجتها فرحته بلقائها رغما عنها لكنها اجابته بالنفي وبأنها جاءت لشراء مرآة المدخل والرف.

ولم يفسد ذلك فرحته ودعاها الي المكتب.. وطلب منها عنوان مسكنها لارسال مشترياتها اليها بسيارة المتجر بعد الظهر، وحاول تقسيط الثمن لها فاعتذرت ودفعت الثمن كاملا فجاملها بخصم كبير. وهمت بالانصراف فسألها ان تنتظر عودة الساعي بالايصال ثم باغتها بالسؤال:

هل عندك اطفال؟

واهتزت مشاعرها رغما عنها واحمر وجهها خجلا وهي تجيبه بالنفي ثم تعجلت النهوض فصحبها الي موظفة الخزينة.. وقدم لها الايصال وودعها باحترام. وغادرت المتجر أكثر اضطرابا مما دخلته. وبعد عودتها الي بيتها بقليل جاءت سيارة المتجر وحملت اليها المرآة والرف.. وفازة أنيقة تكمل المجموعة. ورفضت تسلم الفازة لانها لم تطلبها، لكن العامل الذي حملها أصر علي أنها مسجلة عنده في أمر التوريد وطلب منها الاتصال بصاحب المتجر ومراجعته في الأمر. وأدارت رقم تليفونه، وجاءها صوته راجيا قبول الفازة كهدية من المتجر لعميلة محترمة من عميلاته.. وراجيا ألا تحرجه أمام العامل باعادتها.. اليوم علي الأقل!

وسلمت بالأمر الواقع.. فشكرها «بحرارة» علي محافظتها علي كرامته أمام أحد عماله!

وبعد تفكير طويل قررت أن ترسم بعض اللوحات الزجاجية

وتقدمها له كمقابل للفازة التي ارسلها اليها ورسمت لوحتين ثم حملتهما الي المتجر واعطتهما لموظفة الخزينة راجية تسليمهما للاستاذ عصام، لكن الموظفة أبت تسلم اللوحتين وأشارت لها الي مكتب المدير لتسلمهما اليه .

وتوجهت اليه ففوجئت بطفلين يجلسان معه ويتناولان الآيس كريم . نهض مرحبا بها وأسرع يقدم اليها طفليه «بسنت» و«وسام»، وابتسمت لهما وقلبها يخفق باحساس غريب وتأمل هو اللوحتين باعجاب . . واشترك معه الطفلان في مشاهدتها وسألت «بسنت» أباها عمن رسمها . فأشار اليها قائلا :

انها هي التي رسمتها . . واشتبكت معها «بسنت» و«وسام» علي الفور في حديث عن الرسم . . وسألاها عن اسمها . . وكيف ترسم فوق الزجاج وقاطعهما أبوهما بسؤاله لبسنت :

هل تحبين ان ترسمي مثل طنط مني؟ .

واجابته بالايجاب .

فنظر اليها باسماً ثم قال لها :

مارأيك في هذا «العمل» المربح . . درس في الرسم مرة كل اسبوع وسوف ارسلها لك مع احد موظفي المحل !

ولم تستطع ان ترفض رجاء الطفلة ووعدتها بأن تعطيها درسها الاول يوم الأحد القادم . وانصرفت تاركة اللوحتين ومؤكدة له انها لا تنتظر مقابلا لها .

وفي المساء روت لزوجها ما حدث فلم يسترح كثيرا للقصة . . لكنه لم يعترض ، وجاءتها «بسنت» في موعدها مع احد موظفي المحل صباح يوم الاحد التالي وهو اجازتها من المدرسة . . وسعدت بها سعادة طاغية وامضت ساعات الصباح تتحدث معها وتجيب علي أسئلتها . . وتعلمها الرسم . وسألها زوجها في المساء باشفاق عن نتائج التجربة فأكدت له انها استمتعت بساعات الصباح ذلك اليوم لأول مرة منذ سنوات عديدة .

وتكررت زيارات «بسنت» . . ومن احاديثها عرفت الكثير عن أبيها وعائلته وعرفت أيضا انه يستجوبها بعد عودتها ويسأل عن تفاصيل ماجري بينهما من أحاديث . . ويسألها عن طنط مني كثيراً .

وطلبت منها «بسنت» رقم تليفونها لتتصل بها من بيت جدتها وأعطته لها وأصبحت تتصل بها كل يوم بعد عودتها من المدرسة .

وأصبحت «بسنت» حديثا دائما علي لسان الزوجة الوحيدة مع زوجها . وشيئا فشيئا بدأ زوجها يعبر عن عدم ارتياحه لظهور «بسنت» في حياة زوجته ويسألها ولماذا لاتوجه اهتمامها هذا الي ابنة شقيقها أو ابنة شقيقته؟

واشتمت في حديثه رائحة الشك . . فغضبت وتوترت أعصابها . ولم تفلح تأكيداته لها بأنه يثق فيها ثقة كاملة في تخفيف توترها .

ولمس لأول مرة منذ زواجهما ابتعادها بأفكارها وخواطرها عنه . .

فاكتأب لذلك وأحس بأنها تبحر في سفينة تتجه بعيدا عن شاطئه .

وازدادت عصبيتها في الأيام التالية . . وتحمل ثوراتها المفاجئة عليه واتهامها له بالأنانية وبأنه لايحس بها وبما تعاني .

وسألته بحدة ذات يوم :

هل تغار من طفلة صغيرة؟

فأجابها حزينا :

لا . . لكني أغار ممن وراء هذه الطفلة الصغيرة! . . ومما يمكن استدراجك اليه عن طريقها .

واعتبرت اجابته جرحاً دامياً لكرامتها فهجرت بيته وعادت للاقامة في بيت أمها . واتصل بشقيقها يشرح له ماحدث . . ويسأله :

هل تريد الطلاق؟

فنصحه بالصبر عليها . . وبألا يستجيب لمطلبها حتي لو طلبت الطلاق لانها في حالة عصبية لاتسمح لها بالتفكير المتزن . . ومضت أيام لم تتصل به . . ولم تعد إلي بيتها . واتصل ببيت أمها طالبا الحديث معها . . فرحبت به طويلا وكررت عليه نصيحة شقيقها بالصبر عليها حتي تجتاز هذه الفترة من حياتها ثم اعتذرت له في النهاية بانها «نائمة»!

وتكرر اتصاله بها . . واعتذار الأم عنها بشتي الاعتذارات حتي أيقن ان قصة حبه وزواجه قد آذنت بالمغيب .

ويوما عاد إلي بيته في المساء فأبلغه البواب ان هناك طفلة صغيرة قد جاءت في الصباح ومعها شخص وقالت له ان أحدا لايجيب جرس الباب في مسكنه وان ذلك قد تكرر معها أيضا قبل اسبوع . وابتهج باطنه بهذه الحقيقة التي أهداها له البواب بغير ان يدري . . مازالت «بسنت» تأتي في موعدها الاسبوعي وترن جرس الباب فلا يفتح لها أحد . . اذن فليس هناك اتصال بين زوجته و«بسنت» ومن هو وراءها! . . مازالت زوجته المخلصة التي يعرفها ويحبها . . ولو كانت غير ذلك لعرفت «بسنت» ومن وراءها أنها تقيم ببيت أمها منذ اسبوعين . . لشد ما ظلمها . . انها تحب الاطفال والبنات علي وجه الخصوص . . ورأت في «بسنت» مايشبع حنينها القديم لطفلة تربيها لكنها لم تخن الحب ولن تخونه . نعم انه لايستريح إلي علاقتها بها تخوفا من المستقبل ومما قد يفكر فيه أبوها الذي جمع بينهما . . لكنه لايستطيع ان يظلم زوجته . . فلتحب «بسنت» كما تريد . . ولتستقبلها صباح كل أحد . وليكتم هو مشاعره إلي ان تهدأ مخاوفه . . او تتغير الاحوال وييأس الآخر مما يهدف إليه .

وأسرع إلي بيت أمها . . ولم يتوقف عند محاولات الأم لتعطيله عن دخول غرفة نوم زوجته القديمة . . واندفع اليها منفعلا يحتضنها وهو يلهث من الانفعال ويقول لها :

ـ «بسنت» جاءت مرتين للسؤال عنك . . فعودي إلي البيت لتكوني في استقبالها الاسبوع القادم . . ولن اعترض . . ولن اتخوف لاني اثق في زوجتي وحبيبتي .

وعادت معه إلي بيتها . . وفي اليوم التالي عاد من عمله حاملا معه باقة من الزهور ليضعها في فازة المدخل . . فلم يجد الفازة في مكانها وسألها عنها فأجابته بابتهاج :

بعتها لبائع الروبابيكيا! ولم يهتم بالاستفسار عن السبب . . وأسعده ابتهاجها واقبالها عليه وسألها عن يومها وكيف أمضت ساعات الصباح فقالت له :

ذهبت إلي النادي وعلقت علي لوحة الاعلانات فيه ورقة صغيرة مكتوبا بها : دروس مجانية في الرسم علي الزجاج للفتيات الصغيرات من سن ٤ سنوات حتي ١٢ عاما من العاشرة صباحاً حتي الثانية عشرة ظهرا . . ومكان الدرس صالة الهوايات بالنادي! ثم قالت له :

سيكون لي اكثر من «بسنت» واحدة . . وستصبح ساعات الصباح فترة مثيرة وحافلة بالنشاط الممتع .

فرفع يدها إلي فمه ولثمها صامتا . . ومدت هي يدها تداعب مؤخرة شعره وتقول لنفسها صامتة ومتفكرة :

ما تغزله السنوات من خيوط الحب المتشابكة يصعب علي الأحداث الطارئة . . أن تقصمه!

(٧)

أوراق لاقيمة لها

أوراق لا قيمة لها

لما غادر عيادة الطبيب مكتئباً. مشي في الطريق يحمل المظروف الأبيض الذي يضم صور الأشعة والتحاليل ذاهلا عما حوله. اصطدم بغير أن يشعر بشيخ يتوكأ علي عصا فكاد الشيخ يتداعي لولا أن أمسك به معتذراً. أحسّ أنه في حاجة لأن يستعيد بعض هدوء أعصابه فتوقف وتلفت حوله باحثاً عن مقهي قريب. دخل أول مقهي صادفه وهو غارق في أفكاره وجاء الجارسون فتحير ماذا يطلب منه. هم بحكم العادة أن يطلب فنجان القهوة التي يعشقها لكن وجه الطبيب الصارم قفز إلي مخيلته فتراجع.

تذكر نفس التحذيرات التي سمعها بصورة مخففة قليلاً من كوب الشاي وزجاجة المياه الغازية فلم يدر ماذا يطلب. تاقت نفسه لسيجارة مع فنجان القهوة.. فتمثلت الرغبة له وكأنها من أحلام الأيام السعيدة.. من الآن لا شيء من ذلك فوداعاً لكل لذائذ الحياة البريئة، أما اللذائذ المحرمة فقد تكفل ايمانه بحرمانه منها منذ زمن بعيد.. طال وقوف الجارسون أمامه فقال له وهو لا يكاد يعي ما حوله؛

كوب من الماء من فضلك . .

فاختفي الجارسون ليلبي الطلب متصوراً أنه سيأكل بعض الشطائر التي يحملها في المظروف الأبيض قبل أن يطلب الشاي أو القهوة.

متي بدأت متاعبه الصحية؟ لم يعد يذكر بالضبط . . كل ما يذكره هو أنه قد لاحظ علي نفسه أنه يعاني من بعض الدوار حين ينزل من سيارة الأجرة وكلما غادر المصعد في مبني العمل، وأرجع ذلك الي سرعة المصعد، لكنه لاحظ بعد ذلك أن نفس الدوار يفاجئه اذا نهض من مقعده فجأة أو أجهد نفسه في العمل، فاتصل بطبيب صديق له وشكا له من متاعبه فطلب منه زيارته في المركز الطبي الذي يديره، وفي اليوم التالي استقبله الطبيب مرحباً وفحصه بسماعته ثم طلب منه ارتداء ملابسه وعاد الي مكتبه . . وأصلح هو من شأنه ثم جلس أمامه فقدم له الطبيب فنجان الشاي ودق الجرس فجاءت الممرضة وسألها :

أين الدكتورة مني؟

انصرفت منذ دقائق .

اتصلي بها واطلبي منها العودة للمركز.

ثم اتجه اليه وراح يحدثه في شئون الحياة كما اعتادا أن يفعلا كلما التقيا، وحاول هو انتزاع نفسه من أفكاره ومجاراته الحديث بذهن غائب، وبعد دقائق عادت الممرضة لتبلغه بوصول الدكتورة مني . فنهض وطلب منه مصاحبته وغادر غرفة الفحص الي غرفة أخري قريبة وقدمه للطبيبة

الاخصائية في الفحص بالموجات الصوتية فاذا بها زوجته، وتذكر هو في هذه اللحظة أنه كثيراً ما تحدث معها تليفونياً دون أن يلتقيا، وتحدث الطبيب مع زوجته بالانجليزية بضع عبارات مبهمة لم يستطع رغم معرفته للانجليزية أن يحدد مدلولها ثم انصرف باسماً. وطلبت منه الطبيبة خلع ملابسه عن النصف الأعلي من جسمه والصعود فوق مائدة صغيرة . . فامتثل طائعاً وسحب الاكتئاب تتكثف داخله . من خبرته بالحياة عرف أن صحيح الجسم لا يحتاج الي فحص طويل وأن المريض وحده هو الذي يطول فحصه ويتطلب الأمر استدعاء اخصائية من بيتها للإشتراك في فحصه . وجلست الطبيبة المتخصصة أمام جهاز الفحص وبدأت مهمتها . . ومضت فترة طويلة وهي مستغرقة في عملها باهتمام، ومن حين لآخر تطلب منه أن يستدير لليسار أو لليمين وتغير من موضع جهاز الفحص علي صدره، ثم انتهت أخيراً من عملها وقالت له في رقة :

لا بأس ليس الأمر خطيراً . . لكنه يتطلب بعض المتابعة الطبية!

هكذا تكون البداية دائماً . . ليس الأمر خطيراً . . لكن لا تأكل ولا تشرب ولا تسهر . . ولا تعش .

في بؤرة الدوامة دار حول نفسه لفترة طويلة تنقل خلالها بين عيادات الاخصائيين ومراكز الأشعة والتحاليل . تضخم ملفه في عيادة صديقه الطبيب حتي أصبح يحتاج الي حمال ليرفعه من مكانه . عاد اليه بعد الجولة الطويلة حاملاً معه النتائج النهائية وجلس أمامه صامتاً ينتظر كلمة القضاء فيه .

تأمل صديقه الطبيب النتائج بملامح حيادية لا تنبيء عن شيء . . ثم نحاها جانباً وعقد ذراعيه علي المكتب وهو يقول له باهتمام :

لن أخدعك وأقول لك أنك سليم معافي . . لكني أيضاً لا أريدك أن تجزع وتفسد حياتك بالخوف . . فالحق انك لست سليماً . . لكنك أيضاً لا تعتبر حالة حرجة . . وهناك «شيء ما» في حالتك يستدعي المتابعة الطبية مرة كل ٦ شهور . . وخلال ذلك سوف تلتزم بالدواء التزاماً دقيقاً ، وأريدك أن تتوقف علي الفور عن التدخين وتناول القهوة وألا تشرب أكثر من فنجانين من الشاي كل يوم . أيضاً لا تمارس أي نوع من الرياضة سوي المشي لفترات قليلة . . وعش حياتك بعد ذلك باعتدال والتزم بطعام صحي ولا ترهق نفسك بالعمل وتجنب الانفعال الحاد بكل الطرق ، فلا تحزن لشيء حزناً كبيراً ولا تفرح لشيء فرحاً طاغياً . . فكل أنواع الانفعالات السارة والمحزنة غير مطلوبة ، وستكون النتائج طيبة باذن الله . وسيتوقف علي التزامك بهذه التعليمات اطالة الفترة التي تكتفي خلالها بالأدوية ولا نحتاج فيها الي الجراحة .

سمع التعليمات صامتاً وصدره ينقبض تدريجياً . . خاصة حين جاء ذكر الجراحة . . الشبح الذي يتراءي له في أحلامه المزعجة منذ اكتشف حالته ، شكره بقنوط وانصرف . لا قهوة ولا شاي ولا سيجارة . . ولا انفعالات ماذا يبقي له من الحياة بعد ذلك؟ وكيف يتحكم الانسان في انفعالاته وكثير مما حوله يدعوه للانفعال .

عاد اليه الجارسون فأحس بالحرج وطلب فنجاناً من القهوة وهو ينوي أن يبلل به شفتيه فيستشعر مذاق البن المحبب اليه ثم يدع الفنجان في مكانه .

انصرف الجارسون ليلبي الطلب فعاد الي نفسه . . وأفكاره . سيطوي صدره علي أشجانه ولن يبوح بها لزوجته «سميحه» مهما كانت الأحوال . طبيعتها الانفعالية تمنعه من أن يشركها معه في همه الجديد ، أو يشير اليه معها . خوفها المتأصل في أعماقها من المجهول يفرض عليه أن يحتفظ لنفسه بهواجسه ومخاوفه ويعانيها وحده . في أوقات السعادة وقبل أن تظهر سحب الهموم في الأفق كانت تبكي فجأة . . ويسألها منزعجاً عما يبكيها . . فتقول له بعد الحاح :

تخيلت فجأة أنك تركتني وحيدة مع ياسمين . . فأحسست أني ضائعة . . في الحياة!

كان صحيح الجسم ، والحياة واعدة بكل الخير . . وكانت خائفة دائماً من المستقبل . . فكيف يكون الحال اذا عرفت بأنه قد أصبح لديها ما تخشاه في الواقع عليه؟

ظروفها أكسبتها هذه الطبيعة الحزينة التي تستجيب لدواعي الخوف بأكثر مما تستجيب لعوامل الأمان . منذ عرفها وأحبها أخذ علي عاتقه مسئولية اشعارها بالأمان كل يوم وتبديد مخاوفها وهواجسها .

نشأت وحيدة أبويها . . وانفصل أبوها عن أمها وهي صغيرة فعانت

مرارة الحرمان من حنان الأب ورعايته . وتزوجت أمها فتشردت بين بيوت أبيها المتزوج . . وجدتها . . وأمها . . لا تعرف الاستقرار في مكان واحد لأكثر من شهور ثم تحمل حقيبتها وترحل إلي مأوي جديد . . وماتت أمها بغير أن تنجب من زوجها الجديد فبكتها طويلاً . . وبكت أكثر لأنها لم تمنحها أخاً تستند إلي كتفه في رحلة الحياة . انقطعت صلتها بعد رحيلها بزوجها الأخير وأولاده ، وبعد شهور من رحيل أمها توفيت جدتها فلم تخلع سواد الحداد وجفت منابع الدمع في عينيها . فاجأها بعد شهور أخري أبوها بطلاق زوجته الجديدة وعودته للحياة معها في شقتها القديمة يائساً من تكرار التجربة فاطمأنت بعض الشيء ، لكن رواسب الأكدار استقرت في نفسها حتي النهاية ، أمضت فترة الصبا والمراهقة تعيش مع أبيها . . وتقوم له بدور ربة البيت . تسأله عن أخوالها وأعمامها ، فيجيبها بأنه لم يكن لأمها إخوة سوي أخ واحد مات في الغربة ، وليس له سوي شقيق واحد يعيش في قريته بأقصي الجنوب وتمضي السنوات قبل أن يلتقيا .

تتوق للأهل والأقارب والرفيقات ، وتراسل ابنة عمها في بلدتها البعيدة وتسعد بردها وتحبها بغير أن تراها . عرفها هو وهي في عامها الأخير بالجامعة . . رشحتها له جارة طيبة لأبيها تعرف ظروفها وتحبها وتحنو عليها . قالت له :

فتاة طيبة ووحيدة وتحب الناس وتقدم لخطبتها فرحب به أبوها ولمس بعد قليل قبولها له وحرصها عليه . فنمت المشاعر بتؤدة وعمق . وغلبته

مشاعره بعد قليل وفاتحها بحبه فكأنما ضغط بيده علي قشرتها الأرضية فتفجر من تحتها ينبوع الحب المكتوم وأغرقه بطوفان من المشاعر . أحب أباها سريعاً واستراح اليه وأحبه الرجل واطمأن اليه فقال له :

لم أنجب ابناً فكن ابني الذي يحمي «اخته» من غوائل الحياة ويسعدها . وقالت له هي بعد الزفاف :

أنت وأبي كل دنياي وأهلي فلا تتركاني وحيدة مهما حدث . . ومهما «أخطأت» في حق أحدكما! فاحتضنها باشفاق وطالبها بألا تتخلي هي عنه ذات يوم! وتعاهدا علي ذلك .

لكن أباها لم يحفظ «عهده» طويلاً . . فرحل عن الحياة بعد ثلاثة أعوام من الزواج أنجبت خلالها طفلتها الجميلة ياسمين ، فسالت دموعها أنهاراً . . وفي غمرة أحزانها لم تنس أن تذكره بأنه قد أصبح «كل» أهلها وتطالبه بتجديد «العهد» .

وبإصرار يعرف أسبابه حاولت أن تنجب مرة ثانية وثالثة فلم يأذن الله لها باكتمال الحمل مرة أخري . ونصحها الطبيب بعدم تكرار التجربة لخطرها علي صحتها فاستسلمت يائسة «وباكية» وهي تقول :

تمنيت ألا تعيش «ياسمين» وحيدة كما عشت حياتي ، لكن ارادة الله فوق كل شيء .

وخفف عنها شجونها بكل ما استطاع من حيله . وشجعها علي

العمل لكي تحس بالأمان، وتقتنع بأنها تستطيع حتي في أسوأ الاحتمالات أن تعتمد علي نفسها في مواجهة الحياة. لكن كأنما استقر الخوف في وجدانها ولم تعد تجدي معه وسيلة. لا تريده أن يغيب عن عينيها طويلاً ولو استطاعت لصاحبته الي عمله.. أو اصطحبته معها الي عملها. لا يستقر لها جانب في الليل إلا اذا سمعت حركة قدميه في الشقة، وأحست بأنفاسه الي جوارها. تنام.. ولا تنام.. يتسلل الي الفراش محاذراً ايقاظها فما أن يستقر فيه حتي يحس لمس يدها لشعره.. ويسمع صوتها الهامس يقول:

تأخرت يابابا!

فاذا أجابها مفسراً غيبته اكتشف أنها قد عادت للاستغراق في النوم أو بدأت بمعني أصح استغراقها الحقيقي في النوم.

فكيف سيكون حال هذه «الخائفة» دائماً التي تحتمي به اذا عرفت أن سندها الوحيد في الحياة مهدد بالخطر؟ لا لن يصارحها بشيء وسوف يخفي هذه الفحوص والأوراق عنها كما فعل طوال الأيام الماضية، وسيحتال عليها لاقناعها بأنه سيلتزم بنظام للأكل الصحي ويمتنع عن التدخين والقهوة والشاي والمياه الغازية لتخفيف وزنه بعد أن انتقده الأصدقاء لاتجاهه للبدانة. لكن هل ستقتنع حقاً بذلك؟. تأمل الموقف فتخيلها وهي تنظر إليه في شك وسحب الهموم تتجمع تدريجياً فوق جبهتها.. ثم تسأله فجأة: وما دخل القهوة والتدخين بالوزن الزائد؟..

وتحاصره بعد ذلك بالأسئلة والاستفسارات.. ثم تنفجر دموعها فجأة وهي تصرخ كأنها اكتشفت «خيانته» قائلة:

ياربي.. أنت عيان! قلبي قال لي ذلك منذ أيام.. ورأيت حلماً مخيفاً منذ بضع ليال.. رأيتك في سرير أبيض.. وأنا وياسمين نقف الي جوارك.

ثم تولول وتنتحب وتردد علي مسامعه ما سبق أن سمعه منها مراراً: ياربي.. ماذا سأفعل أنا وياسمين لو جري لك شيء؟

ثم تتدفق دموعها بلا توقف وتعجز عن الحركة من الفراش في اليوم التالي ويتصل بعملها لابلاغ زملائها بمرضها. ويعتذر عن عدم الذهاب الي عمله، ويمضي اليوم الي جوار فراشها وهو يقسم لها أنه بخير.. وأن صحته كالحديد وأن المسألة لا تعدو فكرة طارئة لانقاص الوزن، ولن يتمسك بها اذا كان في ذلك ما يطمئنها.. وهيهات أن تطمئن بعد ذلك إلا اذا اتصلت «سراً» بصديقه الطبيب وسألته عن «الحقيقة».. وكررت الاتصال به مرات ومرات، ثم راقبته خفية في كل حركة من حركاته حتي تهدأ هواجسها.

لقد كان حصيفاً حين لفت نظر صديقه الي هذه المسألة.. وأوصاه اذا اتصلت به سميحه أن ينكر أنه زاره أو التقي به منذ أسابيع!

وسوف يعيد تذكيره بذلك حين يذهب الي مكتبه غداً.. أما الآن فلن يصارحها بشيء.. ولن يعرض عليها رغبته في انقاص وزنه أو الالتزام

بالطعام الصحي. بل وسيتناول افطاره العادي ويشرب معها قهوة الصباح كالعادة في مجلسهما بصالة الشقة كل صباح قبل الذهاب للعمل.. وسيتناول معها كذلك طعام الغداء المألوف في الرابعة مساء الذي تحرص علي اجتماع شملهما فيه مع ياسمين كل يوم حرصها علي حياتها، أما العشاء فقد تجدي بعض الحيل في الاعتذار عنه وسيتناول الدواء في العمل فقط ولن يصحبه معه الي البيت.. وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء... نعم وليفعل الله ما يشاء وهو أرحم الراحمين.

واطمأن الي ما انتهي اليه تفكيره في النهاية فأشار للجارسون ونقده حسابه.. واكتشف وهو يفعل ذلك أن فنجانه الذي اعتزم أن يكتفي بتذوق رشفه واحدة منه. ليس به سوي «تنوه» القهوة في القاع ودوائر متشابكة ومتقاطعة من الخطوط علي جدرانه الخالية فتسللت ابتسامة حزينة الي شفتيه وكأنما يهون الأمر علي نفسه ويقول لها:

مرة وفاتت.

ثم نهض مغادراً المقهي ووقف علي الرصيف ينتظر سيارة أجرة.. ولوح لسيارة عابرة بالمظروف الذي يحمله فتذكر أمره وتساءل في قلق، ماذا أفعل بهذه «المصيبة» الآن ومبني العمل مغلق في المساء.. وقبل أن يتوصل الي قرار توقفت أمامه سيارة أجره فانحني ليركبها وسقط منه المظروف علي الأرض وهو يركب السيارة فنظر اليه لحظة وهم بالتقاطه.. ثم تراجع وأغلق باب السيارة فقال له السائق منبهاً:

سقط منك «شيء» علي الأرض.

فقال له وهو يتظاهر بالاستهانة:

إنها أوراق لا قيمة لها.. مدينة نصر.. من فضلك!

الرجل الخطير

الرجل الخطير!

□ اقتربت السيارة السوداء من رصيف محطة السكة الحديد فانفلت منها قبل أن تتوقف تماماً شخص عملاق رياضي الجسم كان يجلس إلى جوار سائقها وفتح بابها الخلفي فنزل منه رجل وقور في الخامسة والخمسين من عمره يرتدي بدلة كحلية اللون أنيقة وينطق وجهه بالهيبة والجلال.. مضى الرجل في خطوات متزنة إلى المحطة يتقدمه العملاق مفسحاً له الطريق، وقبل أن يصلا إلى رصيف القطار انضم إليهما شخصان آخران يمسك أحدهما بحقيبة أوراق صغيرة فحيا الرجل الوقور وسارا خلفه إلى عربة الدرجة الأولى. تقدم العملاق بين المقاعد يتفحص أرقامها باهتمام ثم توقف أمام أحد الصفوف وانتظر وجاء الرجل الوقور وجلس في مقعد مفرد وجلس الآخران في المقعدين الزوجيين المجاورين له واطمأن العملاق إلى استقرارهم في مقاعدهم فجلس في مقعد مفرد خلف مقعد الرجل الوقور.

لفت المنظر انتباه فراش القطار فتقدم من الراكب الخطير وحياه سائلاً

عما اذا كان يحتاج إلي أي خدمة فرد الرجل تحيته بتحفظ وصرفه شاكراً.

هدأت حركة الركاب في العربة.. ودوي صفير القطار إيذاناً بالتحرك..
ففتح الرجل الوقور حقيبة أوراقه وأخرج منها ملفاً راح يتصفحه بلا حماس.. جاء الكمساري يفحص التذاكر فلما أن اقترب من صف المقاعد الذي يجلس اليه الراكب المهم حتي امتدت له يد السكرتير بتذاكر المجموعة كلها فتفحصها ثم تفحص الراكب المتحفظ بعين مدربة ورفع له يده بالتحية سائلاً عن أية ملاحظة له أو مطلب فشكره الأخر وعاد الي ملفه. وبعد قليل أحس بأن هناك من يتطلع اليه فرفع رأسه فرأي راكبي الصف الأمامي ينظران اليه باهتمام كأنهما ينتظران الفرصة لمصافحته أو الحديث معه، فقدر أنهما تعرفا عليه من صوره العديدة في الصحف والتليفزيون فهز رأسه لهما بتحفظ محسوب لكيلا يشجعهما علي التقدم اليه بمطلب أو رجاء. وأحس العملاق الرابض خلفه بقرون استشعاره بما يدور فنهض واقفاً وهو يرمق الراكبين باهتمام فأدارا وجهيهما وعزفا فيما يبدو عن المحاولة. خيم التحفظ علي المكان كأنما سرت العدوي اليه من الرجل الوقور ومرافقيه فلم تعد تسمع فيه صوت ضحكة رنانة أو حديث صاخب وخلصت الأسماع لصوت عجلات القطار الرتيب، وفجأة انفتح باب عربة القطار بعنف واتجهت الأنظار تلقائياً ناحيته فاذا بكهل أسمر ضاحك العينين أصلع الرأس.. شديد الحيوية يحمل فوق ذراعه مجموعة من المجلات القديمة ينطلق كالصاروخ في ممر العربة غير مبال بشيء ثم يبدأ بالقاء خطبة قصيرة

ضاحكة عن فضل كل شيء قديم علي الجديد وكيف ان الزوجة القديمة أكثر اخلاصاً من الجديدة!.. والحذاء القديم يريح القدم أكثر من الجديد.. ولهذا فهو لا يبيع إلا المجلات القديمة!.. ثم يندفع عارضاً مجلاته علي الركاب ويتبادل مع كل راكب كلمة ضاحكة يتحفه فيها بنكتة تنتزع منه الضحك أو الابتسام ومضي ينثر المجلات والضحكات ويخلف وراءه الابتهاج الي أن اقترب من الصف الخطير فنهض العملاق استعداداً لإبعاده لكنه لم يضطر الي ذلك فلقد ألقي الكهل الأسمر نظرة خاطفة علي الرجل الوقور ومرافقيه وأدرك الموقف في لمحة سريعة فتجاوز الصف كله والصف الذي يليه أيضاً ثم واصل اشتباكه الضاحك مع الركاب إلي أن انتهي من العربة وهمّ بمغادرتها فاستدار خلفه ليرقب الرجل الوقور عن بعد كأنما أراد أن يتأكد من شيء ما، ففوجيء به يثبت أنظاره عليه، فأحني الكهل رأسه مبتسماً في حياء.. ثم استدار وغادر العربة بنفس حركته النشيطة.

انه هو لا شك في ذلك.

قالها الرجل الخطير لنفسه وصدره يجيش بانفعال الذكري.. تري كم من الأعوام مضي علي آخر مرة رأيته فيها؟

ليس أقل من أربعين عاماً بكل تأكيد.. عمر طويل تغيرت فيه الدنيا.. وتحددت المصائر وتفرقت الحظوظ بين رفاق الشارع القديم في حي الحلمية الجديدة فمنهم من أصبح مستشاراً خطيراً.. ومنهم من

أصبح طبيباً لامعاً ومنهم من صادفه سوء الحظ فانزوي مغموراً في احدي الادارات الحكومية ومنهم من لم يزد نصيبه من الدنيا علي بيع المجلات القديمة في القطارات كهذا الكهل الأسمر.. فهل كانت البدايات واعدة بهذه الخطوط؟ لا يمكن الجزم بذلك فلقد كان هذا الكهل الأسمر الذي يبيع المجلات القديمة هو نجم شلتنا وزعيمها الطبيعي الذي نتقرب اليه ونحس أمامه بالانبهار والعجز عن منافسته في أي شيء فهو زعيمنا الذي ندين له بالطاعة بلا مناقشة.. وهو رئيس فريقنا للكرة وأبرع اللاعبين والذي يحدد بكلمة منه مصير أي لاعب منا هل يشارك في اللعب أو لا يشارك، هو قائدنا في التصدي لعدوان عصابات الشوارع الأخري علينا.. وفي الثأر منها لأي «زميل» تعرض لعدوانهم وهو بعد ذلك صانع الابتسامة في حياتنا.. ومدبر كل المقالب الظريفة ضد الكبار أو ضد بعض أفراد الشلة نفسها ومفجر الضحكات عالية في كل مناسبة.. ثم هو أيضاً نجم ليالينا الذي نتحلق حوله فيسيطر علي وجداننا بحكاياته الساحرة التي يحفظها عن جدته العجوز عن أبوزيد الهلالي وعنترة بن شداد.. ومغامرات زورو وهارون «الرشيدي» وهو منظم دخولنا للسيرك حين يجيء الي حينا.

كان فقيراً للغاية حتي ان جدته التي كانت تتكسب ببيع الفول السوداني لرواد المقاهي عجزت عن ارساله الي المدرسة.. ومع ذلك فقد كان يحس بالتفوق علينا جميعاً.. ويزدري ذهابنا كل صباح الي المدرسة «كالأسري» المغلوبين علي أمرهم ويحتقر خضوعنا الذليل «لجبروت»

المدرسين.. ويشكر ربه أنه ليس له من يرغمه علي قبول هذا الذل! وهو يعيش وحيداً مع جدته العجوز ورغم مكانته العالية فلم يكن يستخدم قوته البدنية ضد أحد منا لكن عقابه لمن يغضب عليه كان أشد من الضرب فقد كان يجعله هدفاً لسخريته اللاذعة فيصبح أمثولة للآخرين.

غريبة هذه الدنيا.. ترددت العبارة في رأس الرجل الوقور وهو يسترجع ذكرياته البعيدة ثم قال لنفسه متنهداً:

كم بتُّ من ليال باكياً من سخرية هذا الكهل الأصلع الذي مر بجواري منذ قليل ولم يجرؤ علي الاقتراب مني.. وكم عشت أياماً طويلة ذليلاً لمقاطعته لي أو استهزائه بي.. وكم حاولت رشوته بالهدايا الصغيرة لكي يعفيني من السخرية أو الخصام فكان يتقبل مني الهدايا ولا يغير من خطته معي ولا يكف عن اعلان رأيه فيّ للجميع مصراً علي إني «غبي» و«عبّل» سريع البكاء!

وأما قمة إيذائه لي فلقد صار من «تراث» الشلة الذي يُروي في المناسبات ولصق بي عاره حتي بداية سن المراهقة. فقد أراد اللعين أن يؤكد رأيه في غبائي للآخرين فأعلن لنا عن تنظيمه لمباريات في صفع القفا بين جميع أفراد الشلة بحيث يتصافع كل اثنين ويحكم «الجنة» أيهما كانت صفعته أقوي من الآخر وتحمس الجميع كالعادة لفكرته وفوجئت به يختارني لأكون طرفاً في أول مباراة بيني وبينه وسعدت بهذا التكريم.. وأحنيت له رأسي طائعاً ليتفضل هو ببدء الصفع إذ ليس من المعقول أن

أطاليه بالعكس . . فانهال علي قفاي بصفعة مدوية فقدتُ معها توازنـ ثم تماسكت ورفعت رأسي فوجدت الآخرين غارقين في الضحك وهـ أكثرهم . . واكتشفت أن الجميع يعرفون أنه يسخر من غبائي الذي صوّ لي امكان تنظيم مباريات من هذا النوع أو أن أمد يدي بصفعة علي قـ «الزعيم» . . وانزويت خجلاً وقاومت البكاء بصعوبة بالغة حتي لا أتعرض للمزيد من سخريته، ورغم ذلك لم أكرهه بل كان دائماً موضـ اعجابي وحسدي لجرأته وخفة دمه وانطلاقه .

ثم اختفي هذا الشيطان فجأة من حينا وأنا في نهاية المرحلة الإبتدائـ القديمة وقيل أن جدته رحلت به الي قريتها البعيدة، لكن تأثيره ق شخصيتي لم يفارقني بعد ذلك أبداً ففي المدرسة الثانوية خضعت طائعـ لزعامة زعيم المدرسة وتقربت اليه بالهدايا والنقود لأحتمي به من سخريـ الآخرين، وفي الوظيفة أيضاً فعلت دائماً نفس الشيء وتقربت مـ الأقوياء وخضعت لهم حين تخرجت وعملت، فانتقل قيادي دائماً من يـ الي يد حتي استقر في يد أمينة هانم زوجتي وكريمة مديري الذي نجحتـ في التقرب اليه وبفضل حمايته ونفوذه ترقيت قدماً في الوظائف القيادية .

لكن أمينة هانم تتمادي في الاستهانة بي وتستغل ذعري القديم مـ السخرية أو الاستهزاء بي فتسلط عليّ لسانها اللاذع وكلماتها القارصـ فيحمر وجهي خجلاً وأعجز عن الرد عليها . . ورغم محاولتي دائماً تجنـ إغضابها والتودد اليها بالهدايا فهي لا تنفك تسخر من ضعفي وعجزي واعتمادي عليها وعلي أبيها في كل شئون الحياة . . فحتي أخطر القرارات

العائلية تتخذها زوجتي دون اعتبار لرأيي أو موافقتي، واذا ما اعترضت زجرت في وجهي وذكرتني بأفضال أبيها وأفضالها عليّ في حياتي العملية فزوجت ابنتنا الكبري وهي طالبة بالرغم من معارضتي الحادثة ووافقت ابننا الأوسط علي جنونه فترك دراسة الطب بعد ٣ سنوات منها ليدرس السياحة والفنادق، ووافقت وهو الأفظع ابنتنا الصغري علي نيتها للهجرة مع زوجها لأمريكا رغم فزعي من فكرة ابتعادها عني وهي أقرب أولادي الي قلبي .

تري ماذا كان يفعل هذا الشيطان الأسمر لو كان زوجاً لأمينة هانم؟ أكانت تستطيع فرض ارادتها عليه كما فعلت معي؟ أكان صهره يستطيع أن يتحكم فيه معظم سنوات عمره كما فعل معي؟ لكن كيف انتهي به الحال بائعاً للمجلات القديمة في القطارات . . وأين ذكاؤه وقدراته العجيبة؟

انه لايزال متألقاً بالصحة والبهجة وخفة الدم والقدرة علي اثارة اعجاب الآخرين فلماذا لم يتحدث معي كما تحدث لغيري؟ ولماذا لم يتودد اليّ كما يفعل الآخرون؟ ألا يدري «الغبي» انني في حاجة اليه لأتعلم منه بعض الجرأة والإنطلاق وبعض القدرة علي الرفض والمقاومة . .

استغرق الرجل الخطير في أفكاره فلم ينتبه إلاّ بعد حين الي أن حارسه الشخصي ومدير مكتبه وسكرتيره يقفون أمامه في أدب انتظاراً لأن ينهض لمغادرة القطار . . فاستعاد نفسه سريعاً وأعاد الملف للحقيبة وسلمها

لسكرتيره ونهض فزرر الجاكت باهتمام ثم نظر حوله بحرص كأنما أراد أن يتأكد من أن أحداً لم يطلع علي ذكرياته المخجلة . . ثم تحرك في وقار . . فتقدمه الحارس وغادر العربة فوجد رئيس الشركة التي جاء ليفتتح مبناها الجديد بالمدينة واقفاً بين أعضاء مجلس الإدارة في الانتظار ورحب الجميع به بحرارة واحترام ! .

(٩)

مقعد على الشاطىء !

مقعد على الشاطئ. !

□ أخيراً اقتنع بأنه في حاجة ملحة إلى أجازة قصيرة وإلا ساءت العواقب . اتصل بصديقه حسين في الاسكندرية وطلب منه أن يحجز له غرفة في الفندق الصغير القديم المطل علي الشاطيء. تهلل صديقه للخبر وتساءل مبتهجاً عن الفترة التي سيقضيها معه، فأجابه بأن ذلك رهين باستعادته لهدوء أعصابه التي أرهقها العمل وظروف الحياة .

صديقه حسين من أصدقاء الروح القدامى الذين يأنس لهم ويهرب اليهم كلما اشتدت عليه ضغوط الحياة . تزاملا في المدرسة الابتدائية والثانوية ثم افترقت بهما السبل في الدراسة الجامعية واتخذ كل منهما لنفسه خطاً مختلفاً في الحياة، فعمل حسين موظفاً بشركة عامة في الاسكندرية وعمل هو محامياً في العاصمة المزدحمة لكن الصلة لم تنقطع بينهما أبداً، فكثيراً ما يلتقيان في المصيف . . وكثيراً مايزوره حسين في القاهرة، حمل حقيبته الصغيرة وركب الأتوبيس الفاخر وتأمل الركاب قليلاً ثم استسلم لأفكاره . فترات السفر طويلة ومملة لمن ليس له رفيق في رحلته . .

وكذلك في رحلة الحياة ! تأمل طويلاً زوجين شابين يجلسان في المقعد الأمامي ويسافران وحيدين فقال لنفسه ـ لم يأت الأطفال بعد فهنيئاً للقلوب الشابة رحيق السعادة الصافي قبل أن تخالطه الهموم. مالت الزوجة الشابة علي كتف زوجها وأراحت رأسها عليه . . وغيّر الزوج من جلسته ليجعل من كتفه وسادة مريحة لها فسرعان ما استغرقت الزوجة في النوم وانشغل الزوج بقراءة الصحيفة مشبعاً بإحساس الرضا والأمان العاطفي ، فراقبه بعطف وتمنّي له النجاة من الأحزان!

تسلّي بقراءة كتاب . . فراح يقرأه بعقل غائب . . ويقطع قراءته يتأمل الزوجين الشابين كل حين. تنبه بعد قليل إلي أن جاره ينظر إليه متودداً وراغباً في الكلام فتمنّي لو أعفاه من عناء حديث لن يبدد من وحشته شيئاً. تظاهر بالاستغراق في القراءة ليسدّ عليه مداخل الحديث لكنه فوجيء بصوته يسأله :

تحب الاسكندرية؟

فأجابه باقتضاب من لا يرغب في وصل الحديث :

نعم .

ولم يكن ينتظر سوي هذه الاشارة ليلتقط منها خيط الكلام ويبدأ حديثاً معاداً مثلا عن حبه للاسكندرية وحرصه علي أن يقضي الصيف بها منذ سنوات شبابه ، فسمع له بابتسامة متكلفة آملاً أن يكف عنه إلي أن يئس الرجل منه وانصرف إلي صحيفته .

وصل الأتوبيس إلي غايته فركب سيارة أجرة إلي الفندق القديم الذي شهد ذكريات العمر قبل أن تثقل القلب الأحزان. عشر سنوات كاملة لم يقترب خلالها منه ولا من المدينة نفسها . . فهل يذكره صاحبه العجوز؟ كان يأتي إلي هذا الفندق كثيراً في الصيف وفي الخريف وفي الشتاء وكانت زياراته في الخريف والشتاء أكثر وأمتع فيجد الفندق خالياً . . والشاطيء جميلاً بغير زحام. لكن الحياة لا تمضي علي حال واحدة طوال العمر. فسقيا لأيام السعادة الصافية . .

قدّم نفسه لصاحب الفندق فرحب به بفتور وأعطاه مفتاح الغرفة ولم يستجب لنظرته الودود لكن بريق التذكر لمع في عينيه بعد قليل فقال :

أوه . . أستاذ عصام . . كيف لم أعرف الاسم مع أني سجلته بنفسي؟

ثم استرد منه المفتاح الذي أعطاه له . . وقدم له مفتاحاً آخر لغرفة أمامية تطل شرفتها علي البحر، فامتنّ لتذكره له وحمل حقيبته إلي الغرفة . رتب ملابسه في الدولاب وخلع بدلته الكاملة . . واغتسل ثم ارتدي بنطلوناً خفيفاً وقميصاً وغادر غرفته إلي بهو الفندق فطلب من صاحبه مقعداً يجلس عليه علي الشاطيء كما كان يفعل أيام زمان، ورجاه أن يخطر صديقه حين يجيء بمكانه، علي الرمال وضع مقعده وجلس يستروح هواء البحر. . ويصغي لصوت الموج ويتأمل قرص الشمس الارجواني وهو يغطس ببطء في أفق البحر.

استغرق في تأمل موج البحر والزّبد الذي يلقيه تحت أقدامه. .

فتعجب من دورة الموج الأبدية تبدأ عالية صاخبة قوية حتي تظن أنها تتحدي الزمن ثم لا تلبث أن تشيخ وتستسلم للفناء ككل شيء في الحياة!

هكذا بدا له أيضاً أن حب «أميرة» له سيتحدي الزمن وسيفني العمر قبل أن يفني هو.. فما أبعد البداية الباهرة عن النهاية المستخزية.

قالت له حين تخرجا من الكلية وبعد عامين من الحب الطاهر:

الآن انتهي جهادنا الأصغر لحماية حبنا من الخصوم وبدأ جهادنا الأكبر لتتويجه بالزواج.. فاستعد لأيام لا راحة فيها.

فقال لها: حين تحلو الأهداف.. يحلو الشقاء من أجلها.

وتحمل كل منهما نصيبه من الجهاد والشقاء راضياً فصمدت هي لمحاولات شقيقها الذي تعيش في كنفه بعد وفاة أبويها لتزويجها من زميل له جاهز بالشقة والامكانيات المادية، وتحمل هو سخرية شقيقه الأكبر الذي يضع يده علي أرض أبيه الصغيرة من رغبته في الزواج قبل أن يبني حياته، وحين ذكره بأنه قد تزوج في سن أصغر من سنه أجابه بقسوة.

من يملك إمكانيات الزواج من حقه أن يتزوج ومن لا يملك ليس من حقه أن يفكر فيه!

وعبثاً بعد ذلك حاول أن يستخلص منه ثمن قطعة الأرض الصغيرة التي تمثل نصيبه في ميراث أبيه مقابل بيعها له وعبثاً حاول

الاقتراض منه علي إيراد السنوات القادمة.. وجاء الجواب كالطعنة:

تعليمك تكلف أكثر من ايرادك السنوي بكثير.. وستظل مديناً بالفارق لعشر سنوات قادمة!

روي لفتاته محاولاته الخاسرة مع شقيقه «وصدمته» فيه فخففت عنه كثيراً.

ومن أعماق الأحزان.. استمدا قوة جديدة لتحقيق أهدافهما. عملت باحدي الهيئات، وعمل هو موظفاً بالإدارة القانونية باحدي الشركات.. وادخرا كل قرش كسباه معاً، وبعد عامين من التخرج لان شقيقها واستسلم لرغبة شقيقته، وبمدخراتهما معاً قدم لها شبكة متواضعة لم يخف الشقيق استياءه منها. وفي مفكرة صغيرة دوّن كل قرش ساهمت به في ثمنها ليرده اليها حين يحقق نجاحه. وعلي مدي عامين آخرين ازدحمت صفحاتها بديون أخري لشقيقته الكبري المتزوجه ولأصدقاء العمر بورك في شهامتهم وفي مقدمتهم حسين، وفي اللحظة الأخيرة تعطف عليه شقيقه بمبلغ صغير اعتبره ديناً عليه. وبمعجزة كمعجزات السماء تزوجا في شقة صغيرة نجحا في الحصول عليها بفضل مساعدة شقيق زوجته.

وقالت له حين أغلق عليهما باب غرفة النوم بعد الزفاف:

أحسُّ كأننا قد مشينا علي الأقدام مشواراً استغرق ٦ سنوات فحذار

من أن يفسد علينا شيء حياتنا التي كلّفت أقدامنا من أجلها. فقبّلها سعيداً ومتناً.

ولم يخفف الزواج من جفاف الحياة كثيراً فلقد استمر تقشفهما بعده لرد الديون، وفي كل شهر يرصدان مبلغاً من مرتبيهما لسدادها وبتوجيه منها بدأ بديون الأصدقاء. بعد ٤ سنوات نجحا في تسديد كل الديون وأرادا أن يحتفلا بتحررهما منها.. فركبا القطار إلي الاسكندرية وأقاما في هذا الفندق الصغير وأمضيا فيه أجمل أيام حياتهما وأصبح بعدها هذا الفندق واحتهما الصغيرة في الصيف وفي الشتاء وكلما امتلكا تكاليف الرحلة.

وعاماً بعد عام بدأت نسائم خفيفة من الرخاء ترطّب جفاف حياتهما فزاد دخلهما تدريجياً.. وسبقته زوجته في الترقي في هيئتها ثم مات شقيقه وأبي أبناؤه أن يسلبوا عمّهم أرضه فباعها لهم بمبلغ عادل. ويعقلها المتزن رتبت له أن يستقيل من وظيفته ويشتري مكتباً صغيراً في وسط المدينة ليبدأ حياته فيه كمحام حر. وتحملت فترة التأسيس الأولي فنهضت بأعباء الأسرة بمرتبها وحده..، وعملت كمندوبة دعاية له في وسطها العائلي والاجتماعي ولدي المعارف والأصدقاء، وقال لها وهما يحتفلان بعيد زواجهما العاشر:

أنت سبب كل خير حققته في حياتي.

فأجابته بمكر:

أرجو ألا تنسي هذا حين تجري النقود في يديك! وأسكتها بقبلة علي يدها ونظرة عرفان تغني عن كل كلام.

وبعد عامين انتقلا من شقتهما البسيطة الي شقة واسعة أثثتها بذوقها الفريد واحتفظ بشقته القديمة للزمن.

وحين بلغ الأربعين.. نظرت اليه في اعجاب وقالت له:

ولا شعرة واحدة بيضاء في رأسك.. كأنما أتقدم في العمر وحدي!

فاحتضنها مؤكداً لها أنه لا يري فيها إلا بنت العشرين التي أحبها وهو طالب في الجامعة.

نظر إلي الموج الصاخب.. فرأي قارباً صغيراً عبارة عن لوح من الخشب الأبيض يعلوه شراع صغير يقوده شاب وفتاة ويعتمدان في قيادته علي توجيه الشراع يميناً ويساراً ويتضاحكان في بهجة كلما أفلتا من موجة عالية كادت أن تعصف بشراعها.. فقال لنفسه:

كل شراع يحتاج إلي اثنين متحابين ليحمياه من الأمواج الهادرة.. فكيف غرق شراعه؟

ذات يوم دخلت مكتبه سيدة في الثلاثين من عمرها متوسطة الطول ممتلئة في غير ترهل.. وردية البشرة.. بضّة الملمس.. وجهها وشفتاها الغليظتان دعوة مفتوحة للحب والغزل. فخفق قلبه حين صافحها وأحس باضطراب غير مفهوم. كانت في نزاع مع زوجها وتطلب الطلاق. ووجد نفسه يتحمّس لخدمتها وتكرر اللقاء بينهما.. وفي كل مرة يحس بأنه يهبط درجة أخري في سلم الوفاء لزوجته، والأخري تشجعه

بخطوات محسوبة . ودهش كثيراً حين عرف أن زوجها الذي تطلب الطلاق منه ليس زوجها الأول وإنما تزوجت قبله وهي في العشرين وطلقت بعد عامين وتزوجت من زوجها الذي تريد الانفصال عنه الآن ولديها من كل زوج طفلا! وغاص في بحر الرمال الناعمة متعجباً من ضعفه معها. . ومستخزياً من نفسه ومن زوجته. وبعد عامين تزلزل عشه الصغير بالشقاق والفضيحة حين اكتشفت زوجته خيانته لها وأنه قد تزوج من الأخري سرًا منذ عام! وبإحساس الشريك الذي طُعن في ظهره ممن قدّم له كل شيء، لم تطلب منه طلاق الأخري. وإنما طلبت منه بإصرار أن يطلقها هي! ولم تُجد معها محاولاته ولا ندمه ولا دموعه . . ولا وساطة الأهل والأصدقاء. . وكان ردها الدائم عليهم هو:

لا عقاب لمن يخون حب العمر. . سوي الانفصال عنه!

حتي طلاقه للأخري لم يحرّك شيئاً في قلبها ولم يزحزحها عن طلب الانفصال. وطلقها باكياً. . وتخلّي لها عن المسكن الفاخر وأدي اليها حقوقها كاملة. وذهب للأخري ليعلنها بأنه سوف يردّها فنوجيء بها تطرده من الشقة وتتحول الي نمرة شرسة تخمش وجهه بأظافرها وتسبه بأقذع الألفاظ وتطلب منه أن يختفي من حياتها لأنها لن تعيش مع «نذل» تخلي عنها في أول محنة. فعاد الي مسكنه القديم يعيش فيه وحيداً ثم لم تمض أيام حتي وصلته عريضة الدعوي من زوجته الثانية تطالبه بالحقوق المادية، فتذكر يوم جاءته لأول مره وتخيّل ساهماً ما سوف تتركه في نفس المحامي الآخر من أثر!

وشهراً بعد شهر انتظر أن تصفح رفيقة عمره عن خطيئته في حق الحب والوفاء لكنها لا تصفح ولا تنسي، حتي علاقة الزواج بغير عشرة أو حياة مشتركة حفاظاً علي الشكل الاجتماعي ومصالح الأبناء رفضتها بإصرار فزهد في محاولة استعادتها واستسلم لحياته الجديدة وحيداً في الخامسة والأربعين فضّل أبناؤه الحياة مع أمهم علي الانضمام اليه ولا يكاد يراهم إلاّ لمطلب مادي أو لشأن من شئون التعليم والحياة. ونصحه أصدقاؤه بالزواج فتزوج بالطريقة التقليدية من مطلقة شابة ولم تستقر سفينة زواجه أكثر من عام واحد غرقت بعده في بحر الشقاق وافتقاد الحب.

وبعد فشل زواجه ذهب الي رفيقة حياته وقال لها:

الجرائم تسقط بمضي المدة. . وجريمتي قد مضت عليها ٥ سنوات فدعينا نكمل مشوار حياتنا معاً.

ففاجأته بنيتها للزواج من أرمل زميل لها في العمل وطمأنته الي أن ولديها راضيان بزواجها وتركت له حرية القرار في ضمهم اليه أو تركهم معها. . ودعتهما لسؤالهما أمامه فاختارا الحياة مع أمهما. وتلقي القلب طعنة جديدة.

وهدد بأن يستعمل حقه القانوني في ضم أولاده اليه، لكنه لم يصمد طويلاً لإحساسه المؤلم بأنهما سيعيشان معه راغمين فسلّم بما يكره وتعلق بالأمل الأكثر إيلاماً وهو أن تدفعهما احتياجاتهما المادية كشابين في المستقبل الي العوده اليه!

وتزوجت شريكة عمره من الرجل الآخر. ونظمت حياتها بين أولادها وزوجها فلم يسمع بشكوي من الولدين رغم استعداده النفسي لمثل هذه الشكوي!

وآلمه حتي الموت أن الآخر يتسلل ببطء الي قلبي الصبيين وأنه كأرمل تزوجت ابنته الوحيدة يعاملها بعطف ويغدق عليها من ماله فيئس حتي النخاع من استعادتهما وقال لصديقه حسين حين زاره منذ شهور: إنها جريمة «سرقة» بكل المقاييس، لقد سرقا حياتي وحبّ أولادي.. فكيف يعجز القانون عن العقاب علي هذه الجريمة؟ ونصحه صديقه بالزواج مرة أخري وطالبه بالحاح بأن يجيء الي الاسكندرية لقضاء أجازة طويلة بعيداً عن موطن الأحزان. ولم تخلُ حياته بعد ذلك من علاقات نسائية عابرة لم تطفيء نار الألم في صدره ولم تبدد وحشته فعزف عنها وضاق بكل شيء في الحياة. ثم صحا من نومه ذات يوم فلاحظ قطرات من الدم علي وسادته وأسرع الي الطبيب منزعجاً فقال له بعد فحص شامل:

ضغط دمك انفعالي ومرتفع جداً فكفّ عن التفكير فيما يؤلمك.. وخذ أجازة طويلة من العمل ومن كل ما يثير أعصابك.

وتوالت الفحوص فكشفت عن إصابته بالسكر واضطراب في ضربات القلب وأصبحت الأجازة ضرورة حياة.

فكّر في السفر الي الخارج وحجز لنفسه مكاناً في رحلة سياحية من

رحلات الصيف الي أوروبا لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وقرر أن يسافر الي الاسكندرية وأن ينزل في نفس الفندق الصغير القديم وأشفق علي نفسه من قيادة السيارة فركب الأتوبيس الي هذا المكان. آملاً أن تخفف عنه صحبة صديق العمر وحدته وآلامه.

وتنبه من أفكاره فجأة علي يد تمس كتفه فأدار رأسه ناحيتها متوقعاً رؤية صديقه القديم لكنه فوجيء بمنظر زميل قاهري يقف مرتدياً الشورت وفي يده الأخري سنارة صيد وهو ينظر اليه باسماً وقائلاً:

تستمتع بمنظر الغروب علي شاطيء البحر؟.. ما هذا «الروقان» كله؟

فبسط كفه إليه باسماً بلا كلام كأنما يقول له: كما تري!

(١٠)

حديث في الليل!

حديث في الليل !

لما جاء إلي مكتبه متأخراً بعض الشيء فلاحظ كثرة عدد زواره المنتظرين للقائه هذا المساء. حياهم تحية متعجلة ودخل إلي غرفته. وضع حقيبته الجلدية السوداء علي منضدة قريبة وفتحها وأخرج منها أوراقه ووضعها علي المكتب وجاءه الساعي بفنجان القهوة فاحتساه ببطء ثم رفع سماعة التليفون وطلب من وكيل مكتبه ادخال الزوار. كانت أولي زائراته سيدة جميلة متوسطة العمر حيته بابتسامة حزينة فرد تحيتها باحترام ودعاها للجلوس ثم عقد ذراعيه أمام صدره وتوجه لها بكل اهتمامه مشجعاً لها علي الكلام.

بدأت حديثها خافضة الرأس فروت له قصة خلافها مع زوجها الذي عجزت عن احتمال نزواته وخياناته ومشاجراته الدائمة معها فطلبت منه الطلاق، ورفض طلاقها إلا اذا كتبت له تنازلا عن كل حقوقها فاستجابت لرغبته وكتبت له التنازل المطلوب لكنه تمادي في إذلالها فطلب منها أيضاً أن تكتب له تنازلاً عن أولادها الصغار وفي لحظة يأس من كل شيء كتبت له هذا التنازل مضطرة.

وبكت وهي تسأله هل يعني ذلك حرمانها حقاً من أطفالها؟ لقد احتملت حياتها معه عشر سنوات حتي الآن من أجلهم فهل تضيع تضحيتها عبثاً؟ وكيف تحتمل الحياة بدون أطفالها.. وليته بعد ذلك كان قادراً علي رعايتهم.. إنه رجل عابث لا يستطيع تحمل مسئولية نفسه فكيف سيتحمل مسئولية أطفال صغار يحتاجون إلي الحب والعطف والاهتمام؟ انها لا تريد من زوجها شيئاً.. ولا حتي الشقة التي تعيش فيها ومن حقها البقاء بها حتي انتهاء حضانتها للأطفال فهي مستعدة لأن تتركها له بشرط أن تضم أطفالها إليها في مسكن أمها الذي تعيش فيه وحيدة، وليسعد هو بالشقة التي وضعت كل مدخراتها فيها وصنعت منها عشاً جميلاً كانت تحلم بأن تنعم فيه بالسعادة. وتوقفت عن الكلام لحظات جففت فيها دموعها ثم سألته:

هل أستطيع ياأستاذ أن أحصل علي الطلاق بغير التنازل عن أطفالي؟ إن زوجي يستغل ضعفي لأني وحيدة لا أخ لي يتصدي له فهل تستطيع أن تساعدني في ألا يحرمني من أطفالي؟ وسالت دموعها غزيرة مرة أخري فصمت احتراماً لمشاعرها.. ورق قلبه لجمالها الحزين وقال لنفسه.. كيف يمتهن رجل سوي هذا الجمال المريح ويبحث عن نفسه، عن سلوي بعيداً عنه؟ وقطع تأملاته بقوله لها:

سأفعل كل ما أستطيعه لك ياسيدتي.. وسأبدأ بالاتصال بزوجك ودعوته للقائي.. وسأحاول التفاهم معه بالحسني قبل أن نبدأ النزاع

القضائي وآمل أن أنجح في تسوية الأمر معه ودياً وبعيداً عن المحاكم فاتركي لدي الوكيل رقم تليفونه وكل بياناتك وعنوانك.. ولنأمل خيراً بإذن الله.

فسرت كلماته الواثقة إلي روحها المتلهفة إلي ما يطمئنها سرياً مريحاً ،نظرت إليه بامتنان وشكرته بحرارة.. ثم همت بالكلام مرة أخري فبدت له مترددة ومحرجة بعض الشيء، وخمن هو بخبرته ما أثار ترددها فبادرها قائلا في سماحة:

لا شيء! ليس هناك أتعاب الآن أو حتي اذا نجحت في التوصل لحل ودي مع زوجك بغير رفع الدعوي.

فقاطعته محرجة:

ولكن ياأستاذ!

فأجابها مؤكداً:

لا شيء فعلاً كما قلت لك، فإنه يريحني أن أسعد قلب أم لهفي علي أطفالها مثلك وكل ما أرجوه هو أن أنجح في التفاهم مع زوجك.

فرفعت رأسها إليه شاكرة وقالت له:

ياالهي ليس من فراغ حقاً ما يقولون عنك!

فابتسم لأول مرة وسألها باهتمام:

وماذا يقولون ياسيدتي؟

قالت:

يقولون أنك آية في الحكمة.. والنزاهة.. والإنسانية وإنك تفضل حل المنازعات الزوجية بالود ولو خسر مكتبك القضية.. وتضع مصلحة الأطفال فوق كل اعتبار وتحاول بإخلاص إثناء من يلجأون إليك عن المضي في نزاع الطلاق مراعاة لصالح أطفالهم. وقد كان هذا ما جاء بي إليك فرأيت كل ذلك. وأكثر فتولاه خجل غريب وقال لها ممتناً:

شكراً لك.

ثم صافحته باحترام وغادرت المكتب.

وتوالي دخول الزوار بعدها، فاستقبل أباً يريد أن يقيم دعوي نفقة علي ابنه المهندس الكبير الذي يتنصل من مسئوليته عن أبيه الشيخ بدعوي أن نفقات أولاده تستهلك كل دخله، وأن معاش الأب الضئيل يكفيه، واستمع في صبر الي حديث الأب الطويل عن تضحياته لكي يعلم هذا الابن ويحصل علي أعلي الشهادات وحرمانه لنفسه من ضروريات الحياة لكي يوفر له تكاليف الدراسة بكليته العملية، واستبداله لجزء من معاشه لكي يساعده علي بدء حياته.. والآن يضن عليه بالقليل بدعوي أن معاشه الذي لا يزيد عن جنيهات يكفيه.. هل يجوز هذا يا أستاذ؟ هل يجوز بتركني في هذه السن أتردد علي المستشفيات الحكومية وأبحث عن العلاج المجاني، وهو وأولاده يركبون السيارات، وبعد كل ذلك يضيق بزياراتي له ويطلب مني ألا «أرهق» نفسي بالحضور الي بيته كثيراً، وإذا

مرضت وطالبته بشيء من النقود للعلاج لا يقدم لي إلا أقل القليل؟ هل هذا عدل يا أستاذ؟

ويبكي الشيخ.. فتمزق قلب الأستاذ عطفاً عليه وطيب خاطره ووعده بأن يرسل الي ابنه إنذاراً بتخصيص مبلغ عادل لأبيه كل شهر مع تحمله لكافة تكاليف علاجه.. فإن لم يستجب فسوف يقيم الدعوي عليه ويكسبها له بإذن الله. واستراح الأب الشيخ لكلماته وشكره بحرارة عليها ودعا له طويلاً بطول العمر وبرّ الأبناء به في كبره وبسعادة الدنيا والآخرة، ونهض المحامي الناجح ليودعه حتي باب المكتب وهو يطلب منه ترك بياناته لدي وكيله وتلقي منه الشكر مراراً.. وتكراراً.. وهو يبتسم خجلاً الي أن غادر المكتب راضياً وتوالي الزوار.. واستمع الي كثير من المنازعات والخلافات وبدا للجميع صوتاً للحكمة ورمزاً للرشاد والاتزان النفسي، والاستقرار وقالت له احدي زائراته مادحة وهي تغادره:

هنيئاً لمن كنت لها زوجاً وشريك حياة وأنت بهذا الخلق الطيب وهذه الروح السمحة وهذا العقل الراجح!

وكال له آخرون الثناء بلا تحفظ.

وغادره آخر الزوار في الساعة الواحدة صباحاً.. فجمع أوراقه وحمل الساعي حقيبته الي السيارة وودع وكيل المكتب والسكرتير وانصرف محاطاً بالاحترام والاعجاب.

عاد إلي بيته فأدار المفتاح في باب الشقة ودخل فواجهه ظلام السكن. أضاء نور الردهة الأمامية.. ثم الصالة ودخل غرفة نومه فخلع الجاكيت وألقاه بلا اهتمام علي الفراش الخالي.. وبدأ يخلع ملابسه فتذكر وهو يرى ملابسه مبعثرة في كل مكان صوت السيدة التي قالت له هذا المساء: هنيئاً لمن كنت لها زوجاً! وقال لنفسه صامتاً:

لم يكن هذا رأيها، وإنما شكت دائماً من سوء حظها الذي أوقعها فيه من بين كل الرجال، وندبت مراراً غفلتها حين خُدعت بالحب وتزوجت فكشفت لها عشرته كما تقول عن شخص آخر! وأنكرت عليه كل فضيلة وحتي مزاياه التي يمدحه بها الآخرون عدتها عليه عيوباً يصعب احتمال الحياة معها، فالعقل والصبر.. برود.. والاتزان لامبالاة بحقوق الزوجة «الصابرة»، و«الأمانة» في العمل تفريط في حقوق الأولاد ومستقبلهم من أجل أن تخرج من عنده سيدة فارغة العقل مشيدة بإنسانية الأستاذ الكبير!

أما عند الخلاف فتنطلق قذائفها غير مفرقة بين طيب وخبيث حتي أنه كثيراً ما شك في جدوي الفرق بين الخير والشر.. فكل ما ينبغي أن يحسب له ويشكر عليه عند المنصفين تحسبه عليه وتلومه عنه. ومن حين لآخر تأخذ طفلته الوحيدة وتعود إلي بيت أبيها دون سابق إنذار وبلا خلاف أو شجار. ويسألها لماذا؟ فتجيب:

أعصابي.. أريد أن أريح أعصابي بعض الوقت.

ثم يعيش وحيداً يفتقدها ويفتقد ابنته لفترات طويلة وكلما زارها ليري ابنته ويدعوها للعودة إلي بيتها طلبت التأجيل. ولم تهتم حتي بسؤاله عن أحواله في غيابها! وشكا لأختها بما يلاقيه معها وما تتهمه به من اتهامات ظالمة فقالت له مواسية: لا عيب فيك.. لكنها مدللة وتريد من الجميع أن يتركوا حياتهم ليتفرغوا لتدليلها فتحملها من أجل ابنتك ومن أجلها هي أيضاً فهي تحتاج إليك وبغير حمايتك لها سوف تضيع.. نعم تحمل فهذا قدرك.. هكذا قال له أيضاً أبوها وهكذا يقول له الجميع فيستسلم مرغماً.. وينتظر في صبر انتهاء الزوبعة الطارئة وعودة الحياة لصفائها. ويستمتع بالقليل الذي تسمح به طبيعتها من العطاء ويقول لشقيقه كلما حثه علي أن يطلقها ويتزوج ممن تتباهي به وتكرس له كل حياتها:

- لا أريد لابنتي أن تنشأ ممزقة بيني وبين أمها.

ويواصل الحياة معها صابراً.. ومترقباً هبوب العاصفة القادمة التي لن تنبيء بها للأسف أية مقدمات!

ويقارن كلما ضاق صدره بين حالها وحال الزوجات الكثيرات اللاتي يتولي قضاياهن ويتحسر حين يلمس ما نالهن من امتهان وتعذيب وخيانة علي أيدي أزواجهن ومع ذلك فقد بذلن المستحيل لكي يحتملن الحياة ويحتفظن بهؤلاء الأزواج.. فيتساءل لو كنت زوجاً كهؤلاء الأزواج هل كانت ستفعل معي ما تفعله الآن؟

- انتهي من خلع ملابسه فارتدي البيجامة وغادر غرفة النوم إلي المطبخ

لم يتناول طعاماً منذ الظهر ولم يشرب سوي القهوة والسجائر طوال المساء. فتح الثلاجة وأخرج علبة الجبن وقطع التوست وراح يزدرد طعامه بلا رغبة ثم حمل كوب الشاي وعاد الي الردهة.. حاول أن يقرأ فوجد نفسه شارداً عما يقرأه وضع فيلماً جديداً في الفيديو وجلس أمامه فاكتشف بعد نصف ساعة أنه لم ير شيئاً منه فأوقفه ودخل الي غرفة النوم استلقي علي فراشه وحاول النوم فأطل عليه وجه ابنته الحبيب من ظلام الغرفة ورن في أذنيه صوتها الرقيق وهي تقول له في آخر زيارة:

أريد أن أذهب معك ومع ماما الي «الزرافة»!

لم يدُم الصفاء طويلاً منذ جاءت طفلته الي الحياة وفي نوبات الهدنة القصيرة من التعاسة كانا يخرجان مع طفلتهما الي حديقة الحيوان ويقفان بها طويلاً أمام الزرافة التي استهواها منظرها الفريد. وتذكر أنه حين سألها أن تخرج معه الي الحديقة تلبية لطلب ابنتها فاعتذرت بعدم رغبتها في ذلك ونصحته بأن يذهب بها وحده!

تأكد من أنه لن يستطيع النوم بغير القرص المهديء.. فنهض من سريره متثاقلاً وابتلع قرصين. أغمض عينيه مرة أخري محاولاً النوم.. فلم يقترب منه النعاس، وأحس برغبة ملحة في أن يحدث أحداً ويفتح له قلبه ويبثه شجونه وهمومه.. فإلي من يتحدث في هذه الساعة!

شقيقه الوحيد ينام مبكراً وسوف ينزعج بشدة اذا اتصل به الآن. وأصدقاؤه جميعاً غارقون الآن في النوم الي جوار زوجاتهم.. ورنين التليفون في مثل هذه الساعة ازعاج يصعب الاعتذار عنه. أما شهير

صديقه الوحيد الذي مازال أعزب يعيش وحيداً ولا تزعجه اتصالاته المتأخرة، فهو مسافر وسوف يطول غيابه اسبوعين آخرين.. بمن يتصل الآن؟ اهتدي أخيراً لمن يستطيع الاتصال به في هذا الوقت المتأخر بلا حرج فجذب سماعة التليفون اليه وهو راقد في فراشه وأدار القرص وبدأ يتحدث هامساً:

مساء الخير.. آسف للازعاج في هذا الوقت المتأخر من الليل.. لكنني ضيق الصدر الآن وأريد أن أتحدث معك لفترة قصيرة.. لا أعرف ماذا انتابني هذه الأيام فلم أعد أستطيع النوم، وشهيتي للطعام مفقودة.. وأدخن بشراهة وأسرف في شرب القهوة، وأشرد كثيراً كلما وجدت نفسي وحيداً في فراشي خلال الليل، وأراجع حياتي لأعرف ماهو الخطأ في شخصيتي أو تصرفاتي الذي حرمني من حقي في أن تكون لي حياة مستقرة سعيدة كغيري من الناس.. فلا أجد شيئاً محدداً. ماذا تقولين؟.. نعم.. نعم ربما يكون سوء حظي في الحياة أو أني أحببت من لا تحبني.. أو لعلها تحبني ولكن أقل مما ينبغي كثيراً.. فضلاً عن انها مدللة.. وعصبية لا تعترف بخطأ.. ولا تقدر مشاعري كزوج وكأب. تصوري انها تركت البيت منذ شهور لمجرد أنني بعد عشر سنوات كاملة من الاحتمال فقدت أعصابي معها مرة واحدة وصحت فيها لكي تكف عن الصياح والشجار بلا سبب بعد منتصف الليل.. فزادت من الصياح فوضعت يدي علي فمها لأسكتها فاعتبرتني أضربها، وملأت الدنيا عويلاً وبكاء وصراخاً وفضحتني بين أهلها وأهلي

والجيران، وفي الصباح حملت ابنتي وعادت لبيت أبيها وقالت انها ستبقي فيه حتي تنسي ما فعلته معها! وتمضي الأيام بدون أن تتصل بي تليفونياً أو تسأل عني.. وأزورها وأدعوها للعودة إلي بيتها فتقول لي أنها لم تنس بعد! وأسألها ما ذنب طفلتنا في أن تحرمها من أبيها فتقول لي: ذنبها أنني أبوها!

هذه هي جريمتي التي تركتني من أجلها منذ شهر هل تصدقين ذلك؟.. مرة واحدة فقط لم أستطع فيها الاستمرار في تحمل صوتها العالي الذي يسمعه الجيران بعد منتصف الليل.. فصحت فيها ووضعت يدي علي فمها. هل ارتكبت جريمة لا تغتفر حين فعلت ذلك؟ أليس من حقي أن أثور مرة واحدة في عشر سنوات وهل يبرر ذلك كل ما حدث. نعم أستطيع أن أطلقها وأستطيع أيضاً أن أتزوج غيرها وربما أفضل منها، لكن ما ذنب ابنتي.. وما ذنبي أنا لكي أدفع ثمن تدليلها ومزاجها العصبي.. و... و...

وواصل الحديث الهامس فترة طويلة.. ومن حين إلي آخر يجيبه الصوت النسائي في «الساعة الناطقة» التي أدار رقمها برتابته المعهودة:

الساعة الآن الرابعة وعشر دقائق وثلاثون ثانية!

الساعة الآن الرابعة وعشر دقائق وأربعون ثانية!

... وكلما انقطع الاتصال أدار نفس الرقم من جديد وواصل الكلام في تأثر.. واهتمام!.

(١١)

واسطة خير!

واسطة خير!

□ لم تكن جميلة ولا جذابة بمقاييس الجمال والجاذبية المألوفة.. لكن روحها كانت تشع طيبة وعطفاً وتسامحاً لهذا لم تشعر كثيراً بالمرارة لافتقارها إلي المال.. وإنما سلمت بالأمر الواقع وتقبلته وحاولت أن تعوضه بروحها العطوف وعشرتها المخلصة للجميع..

وكانت علي استعداد دائماً لأن تتنازل عن كثير من مطالبها في فتي الأحلام، وتتحدث عن ذلك بصراحة مع أمها، وتقول لها حين تتمني لها كعادة الأمهات «أفضل العرسان»: وماذا يجد عندي أفضل العرسان مما يبحث عنه لدي الفتيات.. وملامحي ليست جميلة وشعري خشن وجسمي غير متناسق، ولست ثرية فيعوضني الثراء عن نقص الجمال؟ فتسكت أمها متألمة.. وتدعو لها في سرها بأن يوفقها الله إلي من يتجاوز عن مظهر الجمال ويطلب جمال الروح وطيبة القلب..

وتخرجت من كليتها.. وعملت بإحدي الهيئات.. وجمعها العمل بزميلات وزملاء جدد سعدت بزمالتهم.. وبدت لهم دائماً قلباً مفتوحاً

يرحب بالغرباء ويتلهف علي الصداقة الخالصة.. وتلاقت ميول بعض الزملاء والزميلات في العمل فنسجت قصص حب.. وبدايات زواج ولم يقترب منها أحد يطلب حبها وعواطفها المكبوتة.. وبدلاً من أن يكون لها سر شخصي تعتز به وتؤثر به الصديقات المقربات وجدت نفسها بعد فترة موضع ثقة الرجال والفتيات من زملائها وموضع أسرارهم.. يرجوها كل راغب في الزواج أن تكون سفيرته الي من يطلب ودها من زميلاتها فلا تقبل أن تؤدي المهمة إلاّ اذا تأكدت من صدق نواياها وتقوم بالمهمة بأمانة وتسعد بنجاح مسعاها حين تُدعي لحفل الخطبة التي كانت واسطة الخير فيها.. وتتحدث لأمها مبتهجة بما فعلت.. فتشعر الأم بغصة في صدرها.. وتقول لها: تسعين بالخير بين الناس ولا يسعي لك أحد!.

فيتعكر صفوها للحظات.. لكنها تهز رأسها بعد قليل طاردة الهموم والوساوس وتعود لطبيعتها الطيبة..

كان في ادارتها ثلاث فتيات تزوجن جميعاً أو خطبن لزملاء في نفس الإدارة أو من الإدارات الأخري.. وكانت هي سفيرة الخير اليهن جميعاً وبقيت صديقة للجميع ولكن بغير أن يقترب منها أحد وارتبط الشبان في إدارتها جميعاً بزميلات من الهيئة أو من خارجها وبقي واحد منهم صامداً للاغراءات وعزفت عنه فتيات الهيئة ويبررن فشلهن معه بغروره بوسامته.. واعتزازه بأسرته وامكاناته المادية التي أورثته احساساً بالتفوق علي زملائه.. فهو وارث بين زملاء مكافحين يملك قطعة من الأرض

الزراعية وبيتاً قديماً يدر عليه عدة مئات من الجنيهات سنوياً وسيارة صغيرة قديمة.. وصدقت تنبؤات زميلاته له بأنه لن يتزوج من مجتمع العمل وإنما من فتاة باهرة الجمال يتباهي بها في وسطه العائلي.. ففي نهاية العام الثاني من عملها رأت دبلة الخطبة في أصبعه.. وتهامست الزميلات عمن عساها تكون خطيبته.. لكنه لم يتحدث عنها لأحد إلاّ لزميلته طيبة القلب «سميحة» التي تحظي بثقته، فعرفت منه انها فتاة جميلة من أسرة ثرية تعرّف بها في النادي الذي ورث عضويته عن أبيه وتقرب منها حتي مالت اليه وقبلت خطبته..

وتوالت أخباره عليها.. تمت الخطبة والشبكة.. طلبت أسرتها مهراً باهظاً.. واشترطت خطيبته عليه أن يبيع شقته الحالية ويشتري شقة أخري من ٥ غرف في الحي الراقي الذي تسكن فيه.. باع آخر قطعة من الأرض التي ورثها عن أبيه.. واشتري الشقة المطلوبة بمبلغ خرافي ولم يتبق له من ميراثه سوي بضعة آلاف من الجنيهات يحتفظ بها في البنك ويستعين بعائدها وايراد البيت القديم علي نفقات حياته وتم الزواج ودعاها الي زفافه وحدها من بين زميلاته فرأت عالماً جديداً من البشر المتألقين في الملابس الفاخرة والنساء اللامعات بالجواهر الثمينة، سافر مع عروسه الي البحر الأحمر لقضاء شهر العسل وعاد مبتهجاً متألقاً بدماء الصحة ورواء السعادة.. لكن سماءه تكدرت بغيوم المشاكل بعد شهور قليلة من الزواج وأسرّ اليها بهمومه متشكياً: مُدللة الي أقصي حد.. لا تحتمل كلمة عتاب واحدة وتغضب لأتفه سبب.. وتهجر وتغلق دونه

باب غرفتها.. عصبية تتفجر بالسباب واللعنات عند أول بادرة خلاف.. تترك البيت وتعود الي أسرتها وتطلب الطلاق ولا تعترف بخطأ ولا تعتذر عنه.. وتنتظر منه دائماً أن يبدأ بالصلح والاعتذار. مسرفة الي حد الجنون.. ولا تنفق من مالها قرشاً واحداً وتعيره بقلة دخله وتقارنه بأزواج شقيقاتها وقريباتها الناعمات بثراء أزواجهن.. وينفد مرتبه وعائد مدخراته في البنك وايجار البيت القديم في الاسبوع الأول من الشهر.. وتطلب منه المزيد فيسحب من رصيده الذي يدخره للزمن ليعطيها رغم حاجته لعائد هذا الرصيد.. وهي تسمع له وتتألم وتشير عليه وتتعاطف معه..

وتحكي لأمها عن زميلها الوسيم الذي كان موعوداً بأفضل الحظوظ، فاذا به يعاني مع زوجة مدللة انانية، فتقطع عليها أمها استرسالها متسائلة ولماذا لم يتزوجك.. وانت أعقل الفتيات؟

فتهز رأسها مستبعدة الفكرة وتقول لها:

ياماما أين أنا منه.. وهو الذي رفض زميلاتي الثلاث الجميلات ولم تنجح احداهن في اجتذابه اليها؟ ويوم يجيء اليها ساهما ويسر اليها أنه قد طلب أجازة من عمله ليسافر للعمل في دولة عربية لكي يستطيع أن يفي بمطالب حياته المرهقة مع زوجته، فتقول له:

دخلك يكفي لحياة كريمة لكن لا بأس بالكفاح في سن الشباب؟.

وغاب عن إدارتها عاماً كاملاً.. ثم ظهر فيها فجأة وكأنها قد زاد

عمره عشر سنوات وتجعدت ملامحه الوسيمة وتهللت الوجوه لرؤيته وتواصل حديث الذكريات لفترة.. ثم تشاغل الزملاء بشئونهم.. فحمل فنجان القهوة الي مكتبها وجلس أمامها راغباً في الحديث.. وسألته عن الأحوال فراح يروي لها في أسي انها تزداد سوءاً.. وأن زوجته رفضت أن تلحق به في مقر عمله كما اتفق معها في البداية ثم ثقلت عليه الوحدة فألح عليها في اللحاق به وجاءت اليه فلم تحتمل البقاء معه سوي شهر واحد لم يخل من شجار ومنغصات وأمضت معظمه في سوق المدينة تشتري وتختار الملابس والهدايا واستهلكت معظم مدخراته عن العام الأول في مشترياتها ونفقات سفرها.. ثم أصرت علي الا تنتظر أجازته السنوية وعادت ساخطة علي جفاف الحياة في مقر عمله وعاد هو في أجازته بالنزر اليسير من المدخرات فطالبته بشراء شقة في المصيف! وغضبت حين اعتذر بعجز مدخراته عن تلبية مطلبها.. وتكدرت أيام الأجازة التي انتظرها طويلاً وحتي الآن ترفض الانجاب.. وتطالبني بالانتظار ثلاثة أعوام أخري حتي أعود للاستقرار في مصر لكي أكون الي جوارها في فترة الحمل!.

وقالت لنفسها: نعم كان معتزاً بوسامته وامكاناته النسبية وسط مجتمع من البائسين لكنه لا يستحق هذا الحظ العاثر.. فهو طيب في النهاية ولا يضمر شراً لأحد..

وغاب اسبوعين ثم ظهر مرة أخري في الادارة شارداً متوتراً كأنها لم ينم ليلته وطلب منها أن تدعوه الي فنجان من القهوة.. وتشاغل عنه الزملاء

فسألته عما به فأجابها: انتهي كل شيء منذ يومين . . رفضت السفر معي . . وطلبت الطلاق . . وأهانتني لمطالبتي لها بالسفر معي فطلقتها فأخذت كل شيء . . كل شيء مما لها وما ليس لها وتركت الشقة علي البلاط . . وأنفقت كل ما بقي معي من مدخرات العمل في الخارج في سداد مستحقاتها وسحبت جزءاً جسيماً من رصيدي بالبنك، وأطرق برأسه متألماً . . فقالت له: ستبدأ من جديد . . وستسافر مرة أخري لتعوض ما خسرت . . وستتزوج ممن تستحقك . . وإن شئت فسوف أزوجك حين تعود في الأجازة القادمة ممن هي أفضل منها! .

فرفع رأسه اليها وهو يقول:

أخشي أن أكون قد فقدت الثقة في نفسي وفي كل الفتيات! ثم ودعها وانصرف . .

وتوالت الأنباء السعيدة في الإدارة التي تعمل بها . . فتم زفاف «علية» و«ابتسام» الي زميلين من الهيئة كانت هي واسطة الخير اليهما . . ووفقت «نهلة» للعثور علي الشقة المناسبة استعداداً للزواج من «كمال» زميلها بنفس الإدارة وتزوج شقيق سميحة الأصغر وانتقل الي مسكنه الجديد فخلا البيت عليها وعلي أمها . . بعد أن سبق الشقيق الأكبر بالزواج منذ ٥ سنوات . . وفشلت كل محاولات الأم لتزويج ابنتها فاستقر الرثاء لها في أعماقها . .

وجاء الصيف . . وذهبت سميحة الي عملها ذات صباح فوجدت

زميلها السابق الوسيم يجلس بين حلقة من الزميلات والزملاء يرحبون بعودته بعد غياب عام طويل . . وصافحته بابتهاج وشاركت الجميع احتفالهم به ثم انصرف كل منهم الي عمله . . ودعته هي الي فنجان القهوة الأثير لديه أمام مكتبها فروي لها عن نفسه الكثير ثم قطع حديثه قائلاً لها:

«سميحة لقد كنت دائماً واسطة خير بين الزملاء والزميلات في موضوع الزواج . . فهل توافقين علي أن تؤدي لي مثل هذه المهمة؟» . .

وأجابته بحرارة:

بكل تأكيد . . فقط قل من هي . . وفي أي إدارة من إدارات الهيئة . . وسوف أذهب اليها علي الفور وأزكيك لديها بما تستحقه .

فأطرق برأسه قليلاً ثم قال:

لن تذهبي بعيداً . . فهي في هذه الإدارة نفسها . .

فارتفع حاجبها دهشة . . وتلفتت حولها كأنها تبحث بين زميلاتها الثلاث عن زميلة لم تتزوج بعد . . ثم قالت له:

ليس في هذه الإدارة فتيات لم يتزوجن بعد . .

فأجابها يائساً:

لا بقيت واحدة منهن لم تتزوج . . وهي أكثرهن طيبة . . وأجدرهن

بأن تكون زوجة سعيدة . . بقيت «سميحة» وأريدك أن تتوسطي لي لديها لتقبل اعتذاري عن تجاهلي لها خلال السنوات الماضية . . وأن تسأليها نيابة عني . . هل تقبل أن تتزوج من مطلق صادف سوء الحظ في زواجه الأول؟ . .

وخفق قلبها بشدة . . واحمر وجهها خجلاً وارتباكاً . . وتلفتت حولها بحذر لترى هل يتابع الزملاء بالمكتب حديثهما أم لا فوجدتهم جميعاً مشغولين بما بين أيديهم . . فراودها الاحساس بأنهم يعرفون بالأمر ويتظاهرون بالتشاغل عنهما . . فسكتت متحيرة . . وطال الصمت دقيقتين فقال لها وهو ينهض بصوت خفيض :

أرجو ألا تتعجليها الاجابة وإنما دعي «لها» الوقت الكافي لتفكر في الأمر وسوف أمر بك بعد يومين لأعرف «جوابها» فإذا قبلت فأرجو أن تبلغيها اني سأسافر الي عملي بعد ثلاثة أسابيع وأريد أن أعقد قراني «عليها» في أقرب وقت وأصطحبها معي الي حيث أعمل واذا رغبت الا تسافر معي فلا بأس بذلك فإني لن أبقي في الخارج أكثر من عام آخر ثم أعود لاستقر في بلدي بصفة نهائية وسأقبل ما تختاره . .

ثم انصرف عنها وهي جامدة في مقعدها لا تتحرك وتكاد لا تعي مما يقول شيئاً . . وظلت ساهمة شاردة الي أن تنبهت علي احدي زميلاتها وهي تحدثها . . فاعتذرت عن شرودها وشاركتها الحديث بذهن غائب . . وبعد يومين جاء الي الإدارة . . وتسامر مع الزملاء بعض

الوقت وهو يسرق النظر اليها من حين لآخر . . فيجدها تغض بصرها كلما التقت عيونهما . . وأخيراً حمل فنجان القهوة الي مكتبها وجلس أمامها ثم قال لها :

والآن «يابطلة» ماهي نتيجة مسعاك الذي كلفتك به؟ .

فاحمر وجهها حتي بدا له في تورده بحمرة الخجل جميلاً لأول مرة، ثم اطرقت برأسها وهي تقول له في كلمات متعثرة :

«حدثتها» بأمرك . .

«فوجدتها» تقدرك كثيراً وتميل اليك بل لقد كانت «صريحة» مع نفسها ومعي فاعترفت لي بأنها كانت تتمناك وتراك نجماً عالياً في السماء بعيداً عن أن تناله ذات يوم . . ولهذا فهي ترحب بك . . وتغبط نفسها علي هذا الحظ السعيد، لكنها للأسف لا تستطيع أن تسافر معك وتترك أمها وحيدة في مصر . . ولا تفضل أن تعيش بعيداً عن زوجها ولهذا «فهي» ترجوك أن تكتفي من العمل بالخارج بالسنوات التي مضت وتعود لتستقر في بلدك . . وتطمئنك الي أنها لن ترهقك بمطالب مادية ، كما أنها ترى أن دخلك هنا مع مرتبها الذي ستعينك به علي أمرك يكفيان وأكثر لحياة كريمة والمهم هو السعادة واجتماع الشمل وليس أي شيء آخر! .

وسمع كلماتها منتشياً وشكرها بحرارة ثم التفت الي زملائه المتشاغلين عنهما بالعمل أو الحديث . . ورفع لهم ابهام يده اليمني علامة التوفيق في

مسعاه! . . فانفجرت الإبتسامات والضحكات من حولها . . وتأكدت مما شكت فيه من قبل من أنه قد حدثهم جميعاً برغبته في الزواج منها، وانهالت عليها التهاني الصاخبة وعرفت من زميلاتها في مرحهن أنه حاول توسيط احداهن لديها فاعتذرن جميعاً عن المهمة ونصحنه بأن «يوسطها» هي في مسعاه لديها لأنها أنجح واسطة خير في الإدارة التي لم يخب لها مسعى من قبل! .

وضحكت كثيراً حين عرفت ذلك . . واتهمتهن بعدم الوفاء لرفضهن الوساطة بينها وبين زميلها لكنها كعادتها مع الحياة لم تتوقف لحظة أمام هذا الاتهام ورأت في الأمر كله جانبه الجميل وهو رأيهن الطيب فيها، وابتهجت غاية الابتهاج حين فاجأنها باخراج علبة كانت مخبأة تحت مكتب احداهن فاذا بداخلها تورتة أعددنها للمناسبة السعيدة وتجمعن حولها في حماس يوزعنها علي الزملاء وأعطتها «علية» قطعة منها فتناولتها مبتهجة وهي تقول:

تورتة واحدة فقط مقابل ثلاث زيجات سعيدة؟ ياله من جحود! .

فانفجر الجميع ضاحكين . . وساد الإدارة جو بهيج لم تشهده من قبل في الزيجات السابقة! .

(١٣)

سجن الليل!

سجن الليل !

لما تردد بعض الوقت في قبول دعوة زميله لحضور احتفاله بعيد زواجه الثالث لسطحية علاقته به . . ولارتباطه أيضاً بموعد مقدس كل مساء لا يتخلف عنه ، لكن شيئاً ما دفعه للاستجابة في اللحظة الأخيرة . توجه إلي بيت الزميل حاملاً علبة التورته وتوافد الزملاء وزوجاتهم فساد المكان جو المرح . تعزّي ببهجة الحفل قليلاً عن افتقاده لسهرته اليومية مع رفاق المقهي وسهرة لعب الورق التي تليها في بيت أحدهم . ليل الأعزب الوحيد سجن تُفتل قضبانه من خيوط السأم والوحدة وفقدان الرفيق .

أصدقاء المقهي . . أصدقاء وليسوا أصدقاء في نفس الوقت . عرف الطريق اليهم حين نقل إلي الاسكندرية من القاهرة منذ سنوات وضاق بوحدته فيها . قدمه لهم زميل له بالعمل فانضم إلي الشلة متلهفاً علي اكتساب الصداقات . واكتشف بعد قليل أنهم يتسللون من المقهي في التاسعه بأعذار مختلفه وهم يتهامسون أو يتبادلون الإشارات المبهمه . سأل زميله فعرف منه أنهم يتجمعون في المقهي من السابعه حتي التاسعه

مساء ثم يتسلل خمسه أو سته منهم إلي بيت أحدهم فيبدأون سهره أخري مع الورق تمتد حتي الفجر. الورق رفيق الوحده والسأم،وشريك من لا شريك له في الحياه. رحّب بالانضمام اليهم واكتشف بعد أن اندمج في حلقتهم شخصيات أخري لهم لا تتكشف إلاّ علي مائدة اللعب. ميولهم العدوانية وغرائزهم البدائية تنطلق علي سجيتها مع الاندماج في اللعب فتعبّر عن نفسها بلا إدعاء. عرف بينهم الكاذب.. والمخادع.. وحادّ الطباع الذي لا يحتمل الخساره فاندمج فيهم غير نادم علي تدهوره! يبدأون السهره مهذبين باسمين يتبادلون المجاملات فإذا اندمجوا في السباق المحموم نسوا كل الاعتبارات وشغلوا بمعركة الدفاع عن النفس واثارة اللعب حتي يفيقوا مع اقتراب الفجر فينهضون تالفي الأعصاب شبه متخاصمين لا يكلم أحدهم الآخر! يلتقون في مساء اليوم التالي بالمقهي فتعود اليهم ابتساماتهم ومجاملاتهم وكأن شيئاً لم يكن! عرف قانون اللعبة بالممارسة فاحترمه وحاول أن يتوامم معه رغم نفوره الباطني منه، إذ لا بديل لذلك إلاّ السأم والوحدة في ليل الأعزب المزمن. فاتت فرص الارتباط وضاعت فتخطي الأربعين بعام ولم يبق له إلا الحسرة والتوحد في الذات. دنيا الأعزب المزمن نفسه وحدودها شخصه ولا عجب إذ كيف يهتم بالآخرين من لا يهتم به أحد سواه؟ قالت له فتاته وهما في نهاية سنوات الدراسة الجامعية: لم تبق إلاّ أيام وتتخرج فعدني بأن تتقدم لأخي بعد الامتحان وسأذلل لك كل الصعاب.. ولا تخشي عقبات البداية فهكذا يتزوج كل الشباب! فتردّد أمام خطوة البداية

والتمس لنفسه العذر عن جبنه في ضعف امكانياته وثراء أخيها.

انتظرته بعد التخرج عامين طويلين وألحّت عليه أن يتقدم قبل أن يفوت الأوان فتعثر في تردده وعجزه حتي أفاق علي خبر ارتباطها بآخر وزواجها منه! لسنوات طويلة اتهم نفسه بالجبن والعجز وأقسم لنفسه ألاّ يتردد من جديد اذا صادف الحب الحقيقي في حياته مرة أخري، فمضت السنوات.. ولم يظهر في الأفق بشيرٌ له.

تعرف بأخري.. وأخري فما استطاع أن يقنع نفسه بإحداهن ولا اقتنعت به أو أحبته واحدة بمثلما أحبته فتاته القديمة.

انزلقت قدمه إلي مائدة اللعب فأحرق عليها ساعات ليله بلا حساب واكتسب شيئاً فشيئاً طباع المقامرين.. يتهمونه في الشلة بالجرأة والمغامرة في اللعب.. فيبتسم باطنه في حسرة وهو يتذكر تردده أمام السعادة وعجزه عن نيلها!

تقدم في عمله رغم سهر الليل الطويل واستقرت احواله المادية فامتلك الشقة والسيارة ورصيداً كافياً لبداية مشروع الزواج..، لكن أين فتاة القلب التي تسكن العش الخالي.. وماذا يفيد أن تبني بيتاً لا يجد سكانه؟

في حمأة اللعب قد تُفلت الحكمة من بعض الأفواه فنصحه أحد رفاقه بنسيان حلم الحب والاقدام علي الزواج بالطريقة التقليدية.. وقال له آخر:

هاأنت ترانا جميعاً متزوجين . . ومهما كانت مساوئنا وأخطاؤنا فنحن نعود آخر الليل إلي بيوت تُدفئها أنفاس الزوجات والأبناء الذين نتحمل مسئولياتنا عنهم . . وتعود أنت الي بيت بارد موحش لتنتظر موعد اللعب التالي وتصاب باكتئاب شديد اذا عرقل اجتماعنا شيء . . وتلح علينا كل ليلة بل وتتوسل لنا لأن نطيل اللعب ساعة أخري فلا نستجيب لك فلماذا لا تتزوج كما يتزوج الناس . . أحببت أو لم تحب . . وانت الفائز في كل الأحوال . . فحتي هموم الزواج ومشاكله أرحم كثيراً من وحدتك بين جدران الليل .

سلّم بحكمة النصيحة وقرر الأخذ بها وسأل رفاق اللعب أن يرشحوا له من يرونها ملائمة له . . فرشحه بعضهم لقريباته . . والتقي بكل منهن في زيارة عائلية فلم يحالفه التوفيق مع إحداهن .

اعترف لنفسه بأنه قد ضحي بسهرة اللعب هذه الليلة جرياً وراء الأمل الغامض في الالتقاء بمن تخلصه من وحدته في سهرة عائلية مماثلة . . فتري أين هي وسط زحام هؤلاء المدعوين؟ تأمل الحاضرين في بيت زميله وتساءل تري متي كانت آخر مرة شارك فيها في مناسبة عائلية كهذه المناسبة؟ فرقت ظروف الحياة بينه وبين أصدقائه القدامي . . وباعدت غربة المكان بينه وبين إخوته وأسرته . . فلم يعد يلتقي بهم إلاّ في المناسبات القليلة .

وبين زحام الحاضرين لفتت نظره بوجهها المريح وملامحها التي توحي

بالأمان فتساءل في باطنه . تُري من تكون؟ وتأمل المدعوين ليحاول اكتشاف علاقتها بأحدهم فلم يلحظ ارتباطها بأحد . لاحظ طبيعة تصرفاتها فأيقن أنها تنتمي لصاحب الحفل أو لزوجته . وبينما كان مشغولاً بها فوجيء بها أمامه تحمل اليه طبق الجاتوه فتناوله شاكراً وباسماً وقال لها علي الفور انه يحس بأنها «صاحبة بيت» وليست ضيفة فهل له أن يتجرأ ويطلب منها كوباً من الشاي؟ وأجابته بابتسامة ترحيب وعادت اليه بعد قليل بالشاي فشكرها بحرارة آملاً أن تكون خالية القلب!

سأل عنها زميله خلال الحفل فأجابه وهو يتطلع اليه مستفهماً عن سر اهتمامه بأنها شقيقة زوجته ، فأمضي السهرة مركزاً عينيه عليها وكلما التقت عيناها بعينيه ابتسم لها في ثبات ورجاء!

في اليوم التالي توجه الي مكتب زميله في الصباح ليشرب معه القهوة وأدار الحديث عامداً عن حفل الأمس الي أن وصل به الي هدفه وسأله عن شقيقة زوجته . . فعرف منه أنها ليست مخطوبة ولا مرتبطة وإنما مطلقة منذ عام واحد بعد زواج استمر ٨ سنوات بسبب عدم الإنجاب!

اهتزّ قليلاً حين سمع بمشكلتها مع الإنجاب . . لكنه لم يتراجع وإنما طلب من زميله أن يرتب له زيارة عائلية يلتقي بها خلالها لمزيد من الاقتراب . والتقي بها في بيت زميله ولم تَخْفَ تيِّهُ عليها . . فأبدت تجاوباً معه وحدثها طويلاً عن حياته ووحدته . . وسألها أنْ تحكي له عن حياتها فروت له باختصار عن سعادتها المنهارة . . وانهيار زواجها بعد ٨

سنوات بسبب استجابة زوجها السابق لضغط أهله عليه وزواجه من أخري لينجب منها. وروت له عن موافقتها راغمة علي الاستمرار معه بعد زواجه إلي أن أنجب زوجها طفلاً من زوجته الجديدة وشُغل بها عنها تماماً.. ثم استجاب لضغط زوجته الجديدة عليه.. فطلقها ووجدت نفسها مطلقة وحيدة في الثانيه والثلاثين من العمر، وعادت لتقيم مع أمها بعد أن تزوجت شقيقتها وشقيقاها. تذهب إلي عملها صباحاً وتعود لتمضي يومها بين جدران بيتها ومشكلتها هي الليل! فأمها تنام في الثامنة مساء علي الأكثر.. وتبقي هي وحيدة ساعات المساء الطويلة تشاهد التليفزيون وتقرأ وتتقلب في فراشها حتي الثانية أو الثالثة صباحاً. ساعات الليل طويلة وموحشة وجافة.. لا شيء يبلل من جفافها أحياناً إلاّ دموعها الصامتة حين تستسلم للضعف ومرارة الذكريات.

وسألها واجلاً:

هل مازلت تحبينه؟

وأجابته صادقة:

أكذب لو قلت لك أني أكرهه.. لكن مرارة القلب أقوي من كل المشاعر!

واستراح لاجابتها واعتبرها مدخلاً أميناً لاكتساب الثقة. وتكرر لقاؤهما في بيت زميله وازداد اقترابها..

وسألته بعد قليل:

ألا تزعجه حقاً عدم قدرتها علي الإنجاب، فأجابها صادقاً بأنه قد تردد قليلاً أمام الأمر حين عرف به لكنه حسم تردده بالتسليم بفوات أوان الإنجاب أو الأمل فيه وساعدته وحدته المزمنة علي تقبل الأمر بروح واقعية. وسعدت بإجابته وأملت أن تدعم روابطهما الأيام.

واستراح إلي اختياره فصارحها بكل شيء عن حياته حتي بإدمانه للعب في وحدته.. وبمخاوفه من ألا يستطيع بعد الزواج أن يمتنع نهائياً عنه في بعض الليالي فيتركها لوحدتها مع الليل. واهتزت أمام الاحتمال لكنها قالت له بعد أيام انها قد قارنت بين وحدتها الكلية في بيت أمها ووحدتها الجزئية المحتملة بعد الزواج وانتهت الي تفضيلها للارتباط به ووعدته بألاّ تثير له المتاعب بسبب هذه الآفة بعد الزواج الي أن يتخلص منها.

وتزوجا وحضر رفاق اللعب زفافه وانصرفوا مبكرين ليلحقوا بموعدهم المقدس متأخرين عنه بعض الشيء إكراماً لزميلهم!

وأحسّ منذ اللحظة الأولي التي اختلي بها فيها بتطلعها الحزين الي الاحتماء به من التعاسة فرقّ قلبه لها. تفرغ لها أيام العسل ليلاً ونهاراً فأنست لصحبته وشَغلت حياته باهتمامات جديدة. ضبطته بعد شهر من الزواج ساهماً في بداية المساء فقالت له بفطنة:

لماذا لا تذهب لرؤية أصدقائك القدامي. وأمضي أنا هذه الليلة مع أمي!

وقدّر لها حرصها علي إبعاد السأم عنه . . فانطلق مبتهجاً الي شلته القديمة وقوبل فيها بعاصفة من الترحيب والاتهام بالجحود! تكررت الزيارة من حين لآخر ولاحظ عدم ضيقها بها ، فرضي عن حياته معها ومضت أيامها هادئة .

كفّت زوجته عن المبيت مع أمها في الليالي التي يستجيب فيها لنداء اللعب فأصبحت تمضي ليلتها في مسكنها الخالي تتقلب في فراشها ولا يسكن لها جانب إلا حين تحسّ به وهو يندس إلي جوارها في الفراش فتمسك بيده كأنها تطمئن الي أنها لم تعد وحيدة .

وعلي عكس ما أملت من أن تسهم زياراته المتباعدة لرفاق اللعب في إبعاد السأم عنه حتي يزداد تمسكاً بها ، تقاربت مواعيد زياراته لهم حتي كادت تصبح يومية بعد شهور فطالت وحدتها وأطلّ العتاب الصامت من عينيها . وبعد عام آخر أصبحت القاعدة هي سهرة الرفاق والاستثناء هو أن يبقي معها . فاستقر الحزن الصامت في أعماقها . ثم نهضت من نومها ذات يوم مفزوعة لحلم كئيب وتحسست مكانه الخالي في الفراش بأسي وأضاءت النور ونظرت في الساعة فوجدتها الثالثة صباحاً . فأطفأت النور وظلت تحدق في فراغ الظلام وهي تفكر في هذا الحلم الغريب الذي يراودها منذ فترة وتري فيه نفسها تهوي من فوق جبل عال . . وتمد يدها الي زوجها لينقذها . . فلا تجد يده!

منذ أسابيع وهي تحلم بهذا الحلم . . وترويه لزوجها فيطيب

خاطرها . تسلل ضوء الصباح الضعيف الي الحجرة وتسلل زوجها وأحس بها مستيقظة فنظر إليها محرجاً ومرتبكاً . . وحاول أن يبرر تأخره الشديد هذه الليلة فقاطعته قائلة بصوت خافت :

رأيت نفس الحلم مرة أخري . . ولم أجدك إلي جواري . .

جلال طلقني!

انزعج لما قالته وطلب تأجيل مناقشة الأمر الي اليوم التالي . . وغير ملابسه وذهب الي عمله بلا نوم . وعاد في الظهر فوجدها تنتظره في الصالة . . وقد أعدت له طعام الغداء فتناوله علي عجل وهو يقاوم النعاس ودخل الي غرفة النوم فصاحبته اليها . . ورتبت له الفراش فدخل فيه سعيداً بنسيانها للمطلب المزعج وأمسك بيدها شاكراً وباسماً ومعتذراً فسمعها تقول له :

عفواً سأغادر البيت بعد نومك . . وسأنتظر في بيت أمي حتي تتم الإجراءات!

وفقد رغبته في النوم فجأة فانتفض جالساً في فراشه وأمسك بيدها وسألها هل أنت تعيسة معي إلي هذا الحد؟ . . هل فشلت في أن يكون لي أي رصيد من حبك . . انني معترف بخطأ عودتي الي اللعب . . لكنه لن يكون هناك أمل في الاصلاح اذا لم يكن لي أي رصيد لديك من الحب والرغبة المشتركة في استمرار الحياة فهل فقدت كل رصيدي عندك؟ . . أم انني عجزت من البداية علي أن أفتح لنفسي حساباً لديك! وتطلع اليها

بنظرة رجاء . . فأحنت رأسها متفادية نظراته وانسابت دموعها بغزارة وهي تقول له :

أنت رقيق وهادىء الطبع وحنون . . ولا أريد أن يفشل زواجنا لكني أخاف سجن الليل ولا أريد أن أعاني الوحدة كل ليلة ولقد فكرت طويلاً فوجدتك بعد أن تسللت إلي قلبي شيئاً فشيئاً . . وأصبحت كل حياتي تعود فتتسرب من بين يدي وأجد نفسي وحيدة بلا نهاية مع عذاب الليل كما كنت في بيت أمي . . ولم احتمل عودة المعاناة وأريد أن أوقف القصة قبل أن تفسد حياتنا بالنزاع والشجار .

وأجهشت في بكاء مرير . . فانتفض من فراشه واقفاً وقد اكتسب قوة مفاجئة غلبت إجهاد السهر . . وراح يتمشي في غرفة النوم لفترة طويلة مطرقاً يفكر وهي جالسة علي حافة الفراش تبكي . . ثم توقف فجأة أمامها وقال لها :

سناء . . مارأيك في أن نعيش بضعة أعوام من حياتنا علي ساحل البحر الأحمر؟ لقد عرضوا عليّ في العمل منذ أيام ترقيتي ونقلي إلي مدينة الغردقة لكني اعتذرت عن الترقية والنقل ربما تردداً أمام مطالبتك بالانتقال من عملك إلي هناك وربما لكيلا أبتعد عن الاسكندرية ورفاق السهرة، والآن قد غيرت رأيي . . وقررت أن أقبل الترقية والنقل . . وتستطيعين بسهولة الانتقال للعمل معي وسوف تستمتعيْن بالحياة هناك فلن يكون فيها سهر ولا لعب . . ولن يكون لأحدنا سوي الآخر وسوي

استقبال الأهل والأقارب من حين لآخر في زيارات ممتعة في الاستراحة الواسعة التي سنقيم فيها . . فما رأيك في هذا الاقتراح؟

ورفعت اليه رأسها مندهشة ودموعها مازالت تنساب علي خديها وظلت ترنو اليه صامتة فرأي دمعها وهو يجفّ تدريجياً حتي توقفت آخر قطره منه في عينيها وترددت في السقوط . . ثم رأي أسارير وجهها تنفرج رويداً رويداً وبداية ابتسامة أمل جديدة ترتسم ببطء فوق شفتيها، ثم استسلمت أحاسيسها لداعي الابتهاج . . فاتسعت الابتسامة بالتدريج حتي بشّرت بتحولها لدي أي مثير جديد للبهجة إلي ضحكة ارتياح كتلك التي تتسلل للإنسان رغماً عنه حين يكتشف فجأة أنه قد نجا من هاوية سحيقة كاد يسقط فيها فراح ينظر اليها مندهشاً ويتخيل حاله لو كان قد هوي إليها بالفعل !

(١٣)

فتاة عملية!

فتاة عملية!

□ ككل الفتيات كانت تحلم بفتي القلب الذي سيظهر فجأة في حياتها فتنهار أمامه حصونها المغلقة لكنها لطبيعة واقعية فيها أجّلت كل شئون القلب إلي ما بعد انتهاء الدراسة وتحسن الأحوال. فهي فتاة جميلة جذابة تدرس بأحد المعاهد لكنها كبري إخوتها وربة بيتهم منذ رحيل أمها، ومستشارة أبيها الأرمل وصديقته الأولي وقد تحملت مسئولية الأسرة وهي في سن الثانية عشرة من عمرها فأكسبتها الهموم نظرة جادة للحياة فهي المسئولة عن تدبير شئون البيت بمرتب أبيها المحدود، وعن تربية إخوتها ومراقبة دراستهم وتصرفاتهم، ومن أجلهم تنازلت راضية عن حقها في الالتحاق بالجامعة ورضيت بمعهد لمدة سنتين لتتخرج سريعاً وتعمل وتشارك أباها أعباء الحياة. وحين حصلت علي شهادتها ظنت أن نصيباً كبيراً من همومها قد انزاح عن كاهلها.. فهي تستطيع الآن أن تعمل في وظيفة مناسبة وتعود إلي أسرتها في الثانية بعد الظهر كل يوم وتساهم بمرتبها في تخفيف جفاف حياتها.. لكن أحلامها تبددت سريعاً في

اهواء فالوظيفة حلم بعيد المنال لمن لا سند له من أسرة أو نفوذ، وكل الأعمال التي أتيحت لها كانت تتطلب منها أن تعمل من الصباح حتي المساء فيتعذر عليها إدارة بيتها ورعاية إخوتها. وتنقلت بين الأعمال فلم تستقر في عمل طويلاً. واضطرت لتركه كلما خيّرت بينه وبين مسئوليتها العائلية ثم استسلمت أخيراً لليأس ورجعت الي بيتها تنتظر فرصة أفضل من السماء.

وجاءتها الفرصة من مجال بعيد عن توقعاتها.. فلقد أحيل أبوها الي المعاش وتسلم من الهيئة التي يعمل بها مكافأة نهاية الخدمة وكانت «ثروة» بالنسبة للأسرة البسيطة، فقرر الأب أن يقسمها علي أولاده حسب أنصبتهم الشرعية و يودعها لهم في دفاتر التوفير. ونفذ الأب إرادته ورتب حياته علي أن تعيش الأسرة بمعاشه الذي ينقص كثيراً عن مرتبه وأحس بأنه قد أدي بذلك رسالته تجاه أولاده.. خاصة ابنته الكبري شريكته في الهموم منذ صباها. واحتفظ الأب بدفاتر توفير الصغار في حوزته وسلم الكبري الرشيدة نصيبها مطمئناً الي حكمتها، فلم يمض شهران حتي كانت قد حلت مشكلة العمل بطريقة غير مألوفة لمثيلاتها فسحبت رصيدها من دفتر التوفير ودفعته كتأمين لشركات توزيع الصحف واشترت مائدة طويلة.. وبعد يومين توقفت سيارات توزيع الصحف والمجلات أمام عنوان بيتها القديم وأنزلت «رزم» الصحف والمجلات وانصرفت. وظهر في الشارع «فرش» جديد لبيع الصحف والمجلات

والكتب تديره فتاة جميلة ترتدي القميص وبنطلون الجينز الواسع وتتعامل مع الجميع بجدية واحترام!

وأصبحت الفتاة الجادة تبدأ يومها في الخامسة صباحاً.. فتتسلم الصحف وتصفّها علي مائدتها المثبتة بجدار بيتها.. وتعلق المجلات بالمشابك علي حبال كحبال الغسيل فوقها.. وتقف في انتظار زبائن الصباح وقبل الظهر تجمع ما تبقي لديها من تجارتها وتحملها الي شقتها بالدور الأرضي.. وتعود الفتاة الي أسرتها وإخوتها. فتدير شئونهم كما كانت تفعل طوال السنوات الماضية.. وسعدت الفتاة بعملها ورضيت به وبمتاعبه وعرفت بالتجربة كيف تسد ثغرات المتاعب مع مندوبي التوزيع وتتجنب أخطاء الحساب معهم فرسخت أقدامها في المهنة الجديدة واكتسبت احترام الجميع.

وذات صباح رأت وجهاً جديداً لشاب وسيم يمد إليها يده صامتاً بثمن الصحيفة ثم يمضي بها مطرقاً وغارقاً بين صفحاتها. ولاحظت رغم زحام زبائن الصباح أنه لم يحيّها أو يتودد إليها كما يفعل الآخرون. وتكرر ظهوره كل يوم بعد ذلك.. يأتي في السابعة والنصف صباحاً ويشتري جريدته و ينصرف صامتاً.

وبعد أسبوع من ظهوره في أفقها اقترب من المائدة فمدّت إليه يدها بصحيفته المفضلة قبل أن يطلبها.. فابتسم شاكراً ودفع ثمنها ومضي يتصفحها.

وفي اليوم التالي جاء في موعده فصادفها وهي ثائرة علي شاب عابث حاول أن يتعدي حدود الاحترام في حديثه معها . . فتوقف صامتاً يستمع الي احتجاجها . . والي دفاع الشاب عن نفسه بأنه لم يقصد بكلامه سوي الدعابة ثم نظر الي الشاب نظرات صارمة وقال له بهدوء يهدر بالخطر:

لم لا تنصرف وتدع الآنسة المحترمة تمارس عملها في أمان؟

ثم ركز عليه نظراته متحفزاً . . فلم يجد الشاب بدأ من الانصراف قبل أن يتعرض لما يكره .

وعقب انصرافه سألها:

لماذا لا يساعدك أحد في عملك ليحميك من أمثال هؤلاء؟

فوجدت نفسها تحكي له بإيجاز شديد بعض ظروفها فلم يخف إعجابه بشجاعتها . . وتمني لها كل خير في حياتها .

وفي المساء خلت لنفسها . . فتأملت وجهها في المرآة طويلاً ووجدت صورته تطل عليها منها واستعادت نظراته الصارمة للشاب العابث وتساءلت بإشفاق وأمل:

هل آن للقلب المغلق أن يفتح أبوابه بعد طول انتظار؟

ويوماً وجدها تراجع فواتير الصحف والمجلات . . فعرفها بنفسه وبعمله كمحاسب بإحدي الشركات وعرض مساعدتها في حساباتها إذا

احتاجت لذلك فشكرته باسمة وواعدة بأن تستفيد من خبرته في أقرب وقت .

وبعد يومين دعته لزيارتها في بيتها ليساعدها في مراجعة حساباتها وجاء في الموعد فرحب به أبوها . . وجلست الي جواره وفتحت أمامه ملف حساباتها فقدّم لها اقتراحات مفيدة في كيفية ضبطها وترتيبها بطريقة سليمة وغادر البيت مشكوراً من الجميع .

وتكررت زياراته لبيتها . . واعتمدت عليه في حل بعض المشاكل الحسابية مع شركات التوزيع فأدي المهمة علي خير وجه . واعترفت لنفسها أن ما يجمع بينها أقوي من الحسابات وأهم من العمل . . واعترف هو لنفسه بأنه معجب بهذه الفتاة الشجاعة الوفية لأهلها لكنه تساءل مشفقاً هل تقتنع بها أسرته المحافظة؟

وبعد فترة أخري تعمقت خلالها المشاعر . . وفضحتها العيون والتصرفات صارحها بأنه يرغب في الارتباط بها لكنه لن يقوي علي مواجهة معارضة أسرته بسبب الاعتبارات الاجتماعية المعروفة . . فوالده ضابط كبير بالمعاش وشقيقاه متزوجان من طبيبة وكيميائية وشقيقته زوجة لضابط كبير أيضاً وهو أصغر أشقائه ولن يقبل أبوه وأمه وإخوته بزواجه من «بائعة صحف» مع أنه عمل شريف . . وهي فتاة ممتازة مكافحة . . وفية لأهلها .

- - والحل؟ تساءلت .

فأجابها أن تتوقفي عن هذا العمل.. وتنتظر فترة حتي ينسي الجميع عملك هذا أو تجدي عملاً آخر.. ثم أتقدم لخطبتك وتكتم عملك السابق فلا نشير إليه أو نعترف به لو أشار إليه أحد!

واهتزت الفتاة من الأعماق لكنها لم تستسلم للانهيار أمامه وطلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير ينقطع خلالها عن زيارتها والظهور أمامها كل صباح.. وسوف تتصل به في عمله وتبلغه بقرارها.

وانتظر قرارها أسبوعاً فلم تتصل به، وذهب اليها في الصباح فوجدها تمارس عملها بلا حماس.. ووجهها الجميل شاحب كأنها تعاني من المرض وابتسمت له في ضعف حين رأته وقدمت له صحيفته فسألها متي تتصلين بي.

فأجابته:

قريباً.

وانتظر أسبوعاً آخر وذهب في الصباح إليها فلم يجدها وإنما وجد أباها الموظف بالمعاش يبيع الصحف بدلا منها فانقبض صدره وسأل عنها فأجابه بأن صحتها متوعكة بعض الشيء. واستأذنه في أن يزورها في المساء ليطمئن عليها فرحب به الرجل بعد تردد.

وفي المساء طرق الباب ففتحته شقيقة فتاته الصغري وتجهمت حين رأته ثم دعته للدخول. وجلس في الصالون ينتظر فدخلت إليه بعد قليل

فتاته متداعية كأنها لم تنم منذ أسابيع وانزعج بشدة حين رآها وسألها عما بها من مرض فأجابته في حزن: انت!

وسألها مذعورا: أنا؟!

فقالت في أسي: نعم انت.. أنت «مرضي» فأنت أول إنسان أحبه في حياتي وأتمناه لنفسي.. وقد صدمتني صدمة العمر بأنك لا تحبني كما أحبك.

ونفي الاتهام عن نفسه بشدة.. لكنها أصرت عليه.. وأكدت أنه لو كان قد أحبها بعض حبها له لقبلها كما هي.. ولم يخجل من ظروفها ولم يحاول أن «يجمل» صورتها لكي يقنع بها أهله.. في حين أحبته هي قبل أن تعرف أي شيء عن ظروفه ولو كانت ظروفه غير مناسبة لها لما فرطت فيه بعد أن أحبته كما يفرط فيها هو بسبب ظروفها.

وبكت.. وهي تشرح له أن عملها يساعدها علي تربية إخوتها وأنه لو كان الأمر يخصها وحدها لما ترددت لحظة في التضحية به من أجله لكنه أمر يتعلق بإخوتها فهل يرضي لها بأن تكون أنانية وتفضل سعادتها علي مصلحة إخوتها.. وأبوها مريض لا يقوي علي ممارسته.. وإخوتها صغار لا يتحملون مسئوليته؟

ولم يجبها بشيء.. لكنه نادي علي أبيها من مجلسه في الصالون وجاء إليه فمد إليه الشاب يده طالباً أن يقرأ معه فاتحة ابنته، ففوجيء به يعتذر قائلا له: نحن لا نخطف أولاد الناس يابني نحن بسطاء نعم لكننا

شرفاء ولنا تقاليدنا مثلكم فإذا أردت أن تخطب ابنتي فتفضل في صحبة أسرتك في الموعد الذي تراه! وانصرف الشاب صامتاً .. ولم يعد.

ومضت ثلاثة شهور اختفى خلالها تماماً من حياة الأسرة .. ولم يظهر أثناءها في موعد الصباح فيئست منه حتى الموت وتجنبت الأسرة ذكر اسمه أو الإشارة إليه أمام فتاتها المصدومة في حبها الوحيد .. بعد أن تكرر بكاؤها رغماً عنها كلما جاء ذكر اسمه عرضاً على ألسنتهم.

ثم دق جرس الباب في شقة الأسرة البسيطة ذات مساء وفتحته الفتاة فوجدت فتاها «الخائن» أمامها ومعه رجل مهيب المنظر وسيدة وقور فوقفت ذاهلة جامدة في مكانها إلى أن سمعت صوت الرجل المهيب يقول باسماً:

هل هذه هي عروسك الجميلة .. عفارم عليك ياولد!

فانطلقت فرحتها الطاغية بلا حدود .. وتراجعت مضطربة الخطوات تدعو الضيوف للدخول.

وخطب الأب لابنه فتاته المكافحة .. وشرح لأبيها أن الله قد وفقه للحصول لابنه على شقة في نفس الشارع الذي يقيمون فيه ليكون في موقع وسط بين الأسرتين بعد الزواج لأنه أصغر أولاده ولا يريده أن يبتعد عنه بمسكنه كباقي إخوته.

وبعد شهور شهدت شقة الأسرة أول أفراحها منذ وفاة الأم قبل ١٥ عاماً وانتقلت العروس الجميلة إلى مسكن فتى الأحلام القريب وغابت عن فرش الصحف والمجلات والكتب طوال شهر العسل السعيد.. لكنها مع أول يوم بعد انتهائه .. ظهرت في مكانها القديم أمام الصحف في السادسة صباحاً بالضبط، وفي السابعة والنصف مر بها شاب وسيم في طريقه إلى عمله .. فأخذ صحيفة الصباح ومعها ابتسامة حب عذبة .. ولم يدفع نقوداً!

(١٤)

لص القلوب!

لص القلوب!

لنا في أعماق القلب

يوجد شيء غريب

أري ظلال الضوء

تخفي جزءاً سرياً مني

يختبيء من حياتي

ويعيش في الظلام

وأري بعين الخيال

انساناً لا أعرفه

يفهم أفكاري

ويلبي لي احتياجاتي

إنه لص القلوب

سرق مني قلبي

ومضي بعيداً

بالهي - إنه أفضل من حلم

وأجمل من واقع!

«من قصة لص القلوب»

هكذا كانت تقول كلمات الأغنية الأجنبية التي تستمع اليها الزوجة الشابه وهي تجلس الي مكتبها الصغير في الردهة الصغيرة الفاصلة بين حجرة نومها .. وحجرة الأولاد. لقد اختارت منذ زمن بعيد هذا الركن الهادئ، ووضعت فيه مكتباً صغيراً ومقعداً وأباجورة رأسية .. وجهاز الستريو الصغير .. وجعلت منها واحتها الصغيرة التي تجد فيها نفسها الحقيقية بعد نوم الزوج والأولاد.

أجمل ساعات اليوم هي هذه الساعات من الليل، نام زوجها كعادته في التاسعة مساء ونام الأبناء وبقيت وحدها تبحث عن نفسها، تسمع الأغاني الأجنبية وتبوح بخواطرها المكتومة في الدفتر الأزرق الذي لا تسمح لأحد بأن يطلع عليه، تسأل نفسها لماذا تكتب خواطرها علي الورق وهي ليست كاتبة ولا أديبة .. وتجيب علي سؤالها بأنها لو استطاعت أن تتحدث لأحد بما يجول في فكرها لما احتاجت لأن تكتب خواطرها! زوجها يسخر من محاولاتها لأن تعبر عن نفسها بالكتابة .. ويسألها لماذا تكتبين كل هذه الأوراق!

فتتجاهل سؤاله وتحول مجري الحديث الي مجال آخر!

وماذا تستطيع أن تجيبه؟ هل تجيبه بما قالته الزوجة في الفيلم الأمريكي الذي سجلت منه هذه الأغنية حين قالت لزوجها رداً علي نفس السؤال:

لو كنت أستطيع أن أتكلم معك .. لما لجأت إلي كتابة أفكاري.

وهبها قالت ذلك فكيف تشرح له أن الكلام معه لا يعني الكلام الخاطف الجاف في شئون الأولاد ومصروف البيت .. ومشاكل عمله الدائمة التي يصحبها معه ثم يحل الصمت الثقيل بينهما في كل مكان يتواجدان فيه؟ هل تقول له أن في «أعماق القلب» جزءاً سرياً تري فيه بعين الخيال انساناً يفهم أفكارها ويلبي لها احتياجاتها النفسية والعاطفية .. وتتحدث معه بلغة مشتركة!

لو قالت له ذلك .. لتحول الحديث العابر الي أزمة عائلية يشترك فيها الأهل والإخوة وتنعقد من أجلها المجالس العائلية وتقف فيها مدافعة عن نفسها ضد الاتهام البشع بالخيانة.

الخيانة! لا .. انها لا تعرفها .. ولا تسمح لها طبيعتها بها .. لكن النفس معذبة دائماً بما تتطلع اليه وتفتقده في حياتها .. وهي تفتقد لمسات الحب ولغة القلب .. والمفردات المشتركة بينها وبين شريك حياتها لقد تزوجته هرباً من الحب وأملاً في أن يعوضها عنه .. فخابت الأحلام والآمال .. فبعد تخرجها في الجامعة نجحت أسرتها في تعيينها بوظيفة مرموقة، وذهبت لتتسلم عملها فتعرفت علي المدير الذي ستعمل معه.

ولموهلة الأولي التي صافحته فيها أحست أن حياتها سوف ترتبط بهذا الرجل بشكل أو بآخر . لماذا؟ لا تعرف ومازالت حتي الآن لا تدري . . وكل ما تذكره هي أنها عادت الي بيتها ومازالت صورة الرجل في خيالها لا تفارقها . وتأكدت توقعاتها الغريبة بعد أيام قليلة ، واقترب منها واقتربت منه ورأت فيه رجلا وسيماً شديد الجاذبية والرجولة ، شديد الاعتداد بنفسه في غير غرور حازماً في غير عنف . . ورقيقاً في غير ضعف . . واعترفت لنفسها بعد شهور بأنها قد وقعت في حبه وأنه أول تجربة عاطفية في حياتها . ولم تبح له بمشاعرها لأنه زوج وأب لولدين ، ولم يغير من تصميمها علي ذلك ما سمعته من أنه يقاسي الأمرين في زواجه التعيس مع زوجته المتسلطة المستهترة . . فكتمت مشاعرها واكتفت بما تحسه من أمان وارتياح في القرب منه ، وأصبحت تستشيره في كل أمورها وتستريح الي رأيه وتلمس بعد نظره وحكمته واخلاصه فيما تعرضه عليه من أمور لكن اشارات القلوب تخترق حواجز الصمت فلم تمض شهور أخري حتي فاتحها هو بحبه . . وطلب منها باصرار أن تتزوجه علي الفور ، وأحست بأنها قد ملكت الدنيا بين يديها وهي تتلقي عرضه وعادت الي بيتها طائرة علي جناح الأحلام . . لكنها ما أن أغلقت علي نفسها باب غرفتها حتي بدأت تراجع نفسها وتتراجع عن فرحتها . . ماذا سيكون مصير زوجته وولديه . . وكيف ستواجه أباها وأمها بزواجها من رجل متزوج وأب ويكبرها بست عشرة سنة؟ وماذا سيقول عنها الأهل والاخوة والأقارب . . وكيف تواجه زميلاتها في العمل حين تصبح خاطفة أزواج؟

وعجزت في اليوم التالي عن الذهاب الي العمل وأمضت أياماً أخري لا تقوي علي الذهاب اليه ومواجهة فارس أحلامها . وبعد أسبوع طويل لم تنم خلاله نوماً هادئاً مرة . عادت الي مكتبها وصارحته بأنها لا تقوي علي مواجهة الآخرين بزواجها منه . . ولا تقوي علي احتمال حياتها والاستمتاع بها إذا قضت علي سعادة زوجة وولدين في سن المراهقة . . وعبثاً حاول اقناعها بأن زواجه محكوم عليه بالفشل والانفصال سواء ارتبطت به أم لم تفعل . لكنها كانت قد حسمت أمرها بعد معاناة قاسية .

وفي اليوم التالي قدمت طلباً لنقلها الي إدارة أخري في مبني بعيد عنه . وعرف بالأمر فجاء اليها في مكتبها وبكي أمامها كالطفل الحائر راجياً إياها اذا كانت قد رفضته كزوج وحبيب الا تحرمه فقط من رؤيتها كل يوم في مكان العمل بلا حديث في الحب ولا إشارة اليه ، وتوصل معها بعد عناء شديد الي حل وسط هو أن تنتقل من إدارته فعلا . . ولكن الي إدارة أخري في نفس المبني لكي يتاح له أن يراها ويتبادل معها تحية الصباح في موعد الدخول . . وتحية الوداع عند الانصراف منه . . وقبلت بذلك ، ووجدت فيه حلا لمشكلتها معه . وأصبحت تحية الصباح . . ونظرة الوداع الصامتة عند الانصراف والحديث القصير في المناسبات المتباعدة هي كل ما يربطها به وبعد أسابيع أخري تقدم اليها شاب من أسرة ثرية . . ففكرت في الأمر طويلاً ثم وافقت عليه وكل أملها هو أن ينجح هذا الوافد الجديد في غزو قلبها وطرد الآخر منه . وأبلغت مديرها السابق بالأنباء الجديدة فتلقاها واجماً وحزيناً . . ولم يخفف عنها مشاعره

ولا مطالبته لها بألا تدفن نفسها حية مع من لا تحب . . وتبتعد بإرادتها عمن يحس برعشة جفنيها عن بعد يقرأها ككتاب مفتوح ويتخاطب معها علي موجة واحدة وازدادت اضطراباً لكنها لم تتراجع عما أقدمت عليه وارتجفت حين دس في يدها في اليوم التالي ورقة صغيرة خلال تحية الصباح . . وبكت وهي تقرأ فيها كلماته المعبرة : لو ذهبت الي آخر الدنيا . . فلن تجدي رجلاً يقدم لك ما سوف أقدمه لك أنا من حب وعطاء .

واضطربت علاقتها بخطيبها لفترة . . ولكنها واصلت الطريق باصرار أشد وتعجلت الزواج منه كأنها تفر من قدر يلاحقها وتخشي أن تستسلم له . وتزوجت خلال وقت قصير . وبدأت تتهرب من لقاء الصباح . . وتحية الوداع .

وأقبلت علي زوجها تحاول أن تملأ به حياتها وخيل اليها أنها أحبته ونسيت الآخر . لكن شيئاً ما في أعماقها كان يشدها دائماً الي الوراء ، وساعدها علي ذلك أن وجدت زوجها رجلا صامتاً معظم الوقت جاف المشاعر . يستسخف حديث الحب ويراه عبثاً لا يليق بالكبار . ولا يحدثها إن تحدث إلا عن طموحه في الحياة ومتاعب العمل . . ولا يستجيب لمحاولاتها لاضفاء أية لمسة من الرومانسية أو الشاعرية علي حياتها .

وأنجبت طفلة . . فتعزت بها عما تحسه من انفصال عاطفي بينها وبين

زوجها ، وجاء الابن الصغير فزادت أعباؤها العائلية وانشغلت بهما عن هواجس القلب .

ثم كبر الأبناء والتحقوا بالمدرسة وازداد انشغال زوجها في عمله في الصباح وفي المساء فطالت ساعات وحدتها في المساء بعد أن يعود زوجها الي البيت منهكاً ويتناول طعام العشاء خطفاً في المطبخ ثم يدخل الي فراشه فيرتفع غطيطه من غرفة النوم بعد لحظات . في التاسعة من مساء كل يوم تجد نفسها وحيدة . . نام الزوج ونام الأولاد وبقيت هي تتحرك في البيت الصامت وتعجز عن النوم قبل الثانية صباحاً .

وفي احدي أمسياتها هذه واتتها فكرة أن تشغل نفسها بكتابة خواطرها علي الورق . . وتحدثت بذلك الي زوجها وهو يتناول عشاءه الخاطف فسألها متجهماً :

ولماذا لا تشغلين نفسك بصنع بلوفرات للأولاد أو خياطة الملابس لهما ؟!

واحست بغصة في قلبها ولم تعلق فهي تصنع البلوفرات فعلاً وتخيط الملابس وتقوم بكل شئون البيت ومع ذلك تبقي ساعات المساء خالية مملة حتي الثانية صباحاً .

وقررت أن تكتب وتخفي عنه ما تكتبه . . واشترت هذا المكتب الصغير وصنعت هذا الركن الهادىء الذي تستريح فيه الي نفسها وأفكارها كل ليلة .

وفي أول صفحة من دفتر مذكراتها كتبت:

أحس أنه سيجيء

ويذلل الصعوبات التي فرقت بيننا

ويتحدث معي بلغة الحب

ويطاردني بين الحجرات.. وأنا أجري منه

وأراوغه ضاحكة.. سعيدة

وواصلت كتابة خواطرها كل ليلة وسألت نفسها ذات مرة ماذا يفعل زوجها لو قرأ هذه الكلمات؟ هل يرميها بالخيانة ويتهمها في شرفها؟

وسرحت بأفكارها قليلاً ثم قالت لنفسها.. مؤكد سوف يفعل لكن ماذا يجدي كل ذلك الآن.. وهي قد ذهبت ذات يوم منذ ثلاث سنوات الي العمل فعرفت أن «الآخر» قد أصيب بأزمة قلبية في مكتبه قبل وصولها بدقائق ونُقل الي المستشفي وهرولت اليه مع الزملاء فما أن وصلوا الي بابه حتي جاءهم من ينعيه لهم لقد مات «الآخر».. وتوقفت تحية الصباح.. ونظرة الوداع ومرضت هي مرضاً طويلاً.. وزهدت بعد شفائها في العمل وشجعها زوجها علي التفرغ للبيت.. فتفرغت له. لقد فات الأوان.. كما يفوت دائماً أوان الأشياء الجميلة في الحياة لم يبق إلاّ الأوراق.. وهدوء الليل.. والأنغام الحزينة. وفي أوراقها كتبت: لقد اكتشفت بعد فوات الأوان أنني كنت أحب زوجي رغم عيوبه وصمته

وجفائه وسعيدة معه.. و«الآخر» علي قيد الحياة أما بعد أن رحل فلم أعد أطيق رؤيته وكثرت المشاحنات واستقر الصامت الخانق بيننا. فأنا الآن أعيش مع رجل رحل عن الحياة.. «وأموت» كل يوم مع رجل يتنفس الي جواري! وسقطت دموعها علي أوراقها حين انتهت من كتابة هذه السطور.. وكلمات الأغنية الغربية عن لص القلوب والجزء السري الذي يعيش في الظلال.. تنساب في رقة وحزن.. في أنحاء المكان!

الفرصة الأخيرة!

الفرصة الأخيرة !

□ كانا شابين صغيرين يتبادلان الحب والعطف والأمال في المستقبل هي طالبة بالمدرسة الثانوية.. وهو طالب بالمدرسة المجاورة يكبرها بعامين وتعرفهما المدينة الصغيرة التي يعيشان فيها جيداً وتراهما كل يوم عائدين من المدرسة يتبادلان الأحاديث الهامة والابتسامات..

وأنهى الفتى دراسته الثانوية وغادر المدينة الصغيرة الى العاصمة ليلتحق بكلية الطب وانقطع لقاؤهما اليومي.. وأصبحا لا يلتقيان إلا كل عدة أسابيع كلما عاد الفتى لزيارة أسرته، لكن المشاعر تزداد عمقاً مع الأيام.

وأنهت الفتاة دراستها الثانوية وقنعت بوظيفة صغيرة في مدينتها وشغلت دراسة الطب الفتى فتباعدت اللقاءات بينهما.. وإن لم تنقطع الرسائل. وصمدت الفتاة لرغبة الأهل في زواجها بعد أن تجاوزت الثانية والعشرين بغير أن يتقدم فتاها لخطبتها.. وضاقت بحصار أهلها.. والراغبين في زواجها فكتبت اليه تطالبه بالعودة لكي يرتبط بها مع

استعدادها لانتظاره حتي يكون قادراً علي أعباء الزواج لكن الفتي يكتب اليها بأن الطريق أمامه طويل. وتستشعر الفتاة قسوة الغدر وضياع الحلم لكن قلبها لا يخلو من أمل غامض فيه. ثم تسمع بأنه قد ارتبط بابنة استاذه في الكلية وتزوج منها.. فتعاتبه في خيالها طويلاً وتسلّم باليأس منه.. لكنها لدهشتها لا تحس تجاهه بأي كراهية له بعد غدره بها. وبعد شهور من زواجه تقبل الزواج من موظف البنك الشاب الذي يلاحقها باعجابه وحبه بلا يأس وتتكيف مع حياتها الجديدة.. وترغب بإخلاص في أن تحيا مع زوجها حياة هادئة سعيدة.. بل وتشعر بالامتنان لهذا الشاب الذي ظل سنوات يرغب فيها بصدق ويرفض أن يتنازل عن أمله فيها.. وتساعده علي التقدم في عمله.. وتبتهج لكل نجاح يحققه في حياته وتخلص له كزوجة.. لكنها رغم ذلك تهتم اهتماماً غامضاً بكل ما يصل اليها من أخبار الطبيب الشاب الذي كان زميلاً لها بالمدرسة وتسعد في باطنها بكل ما يحققه من نجاح.

ومضت حياتها مع زوجها هادئة فاترة، لا يقطع فتورها إلا ما يصل اليها أحياناً عن طريق صديقات المدرسة في الزمن السعيد من أنباء عن فتي القلب القديم.. كتقدمه في عمله بمساندة أستاذه وصهره.. وكتعاسته مع زوجته المدللة العصبية التي يحرص علي استمرار الحياة معها رعاية لابنه الوحيد ولأستاذه الذي قدم له الكثير.

وبلغ بها الاهتمام قمته حين عرفت ان زوجته قد هجرته بعد ١٨ عاماً من الزواج وان ابنه قد اختار أن يقيم معها وتألمت له علي البعد.. وقالت

لنفسها انه لا يستحق هذا الشقاء.. و«حكمت» بغير دليل سوي قلبها بأن زوجته هي «المخطئة» واستراحت الي هذا «الحكم العادل» وتمنت له حياة أسعد في أيامه القادمة.

ومات زوجها بعد عشرين عاماً من زواجها ولم تكن قد أنجبت منه فبكته طويلاً وتألمت لفراقه.. وذكرت له دائماً عشرته الطيبة الهادئة ومحاولاته المخلصة لاسعادها. واعتزلت الحياة بعد رحيله عدة شهور. وبعد عام من وفاته تغلبت عليها الوحدة والفراغ في سكنها الواسع فعادت الي وظيفتها القديمة، وارتبطت بحكم تشابه الظروف مع أرملة ومطلقة من صديقات المدرسة القديمات تعانيان مثلها من الوحدة وأصبحن يلتقين كل يوم علي الغداء بيت إحداهن.

وفي احدي هذه الجلسات قرأت خبراً صغيراً عن فتي القلب القديم يقول إنه قد عُيّن رئيساً لمركز طبي حديث.. فأثار الخبر حديث الذكريات وفوجئت باحداهما تقول لها لماذا لا تكتبين اليه مهنئة فتجددين صلتك به؟ وتعجبت للفكرة في البداية.. لكنها وجدتها تسيطر عليها في الأيام التالية وتداعبها بأمل غريب!

وكتبت اليه رسالة بدأتها بعبارة: هل لا تزال تتذكرني؟. ثم هنأته بما حقق من نجاح وروت له باختصار ما شهدته حياتها وذكرت له عنوانها ورقم تليفونها.

وتعلقت بالأمل في أن يصلها منه خطاب يحرك ملل حياتها فمضت الأيام وصندوق بريدها فارغ إلا من هواء العدم.

وتناولت القرص المهدىء الذي تتناوله كل مساء لتستطيع النوم ودخلت في فراشها فرن جرس التليفون . . وتهيأت لترد علي احدي صديقاتها فجاءها صوت غريب يناديها باسمها القديم الذي لم يعد أحد يتذكره ويقول لها : هل لا تزالين أنت تتذكريني ؟ .

وباتت ليلتها سعيدة تحسُّ بأن حياتها الخاوية قد اكتسبت ثراء وجدانياً جديداً .

وتكررت الاتصالات بينهما من حين لآخر . . وفي كل مرة تطلب منه أن يحكي لها ما شهدته حياته من أحداث منذ غادر المدينة الصغيرة . . وروي لها كل شيء عن حياته واعترف لها بأنه يعيش حياة أعزب منطلق منذ انفصاله عن زوجته وانه قد عرف أكثر من امرأة لكنه لم يحب إحداهن حباً حقيقياً .

وعاشت معه في الخيال كل تفاصيل حياته اليومية . . وأصبحت تنهض من نومها «فتعرف» بقلبها أنه الآن في شقته الفاخرة الواسعة يتناول إفطاره المفضل من الجبن الأبيض والخبز المحمص والقهوة استعداداً للتوجه الي الكلية ليحاضر فيها طلبته . وفي الظهر «تعرف» أنه الآن في عيادته بالمركز الطبي يستقبل مرضاه . . ويقطع وقت العمل بتناول كوب كبير من الزبادي المضروب بالخلاط وفي المساء «تعرف» أنه الآن في ناديه مع أصدقائه وزملائه . . وربما «صديقاته»! .

وأصبح الطبيب الناجح حديث جلسة الظهر الدائم للصديقات الثلاث وفي احدي الجلسات تساءلت حائرة :

هل يكمن الحب في احدي زوايا القلب ويتجمد بثلوج اليأس ومر السنين حتي تظنه قد مات فاذا مسته حرارة الاتصال انبعث حياً وعملاقاً من جديد ؟ .

وتبادلت الصديقتان نظرات الإشفاق . . ثم تساءلت إحداهما بحذر : لماذا لا تقترحين عليه أن يزور مدينته القديمة لكي تلتقيا لأول مرة بعد ٢٨ عاماً ؟ .

وفي المساء جاءها صوته فتلعثمت وهي تقول له : ألم تفكر في زيارة مدينتك القديمة . . لتراها بعد كل هذه الغيبة الطويلة . . وتري «أصدقاءك» القدامي فيها ؟ .

وأجابها بأنه يتمني ذلك لأن مشاغله تحول دونه . .

ثم تساءل بخبث :

اذا كانت ظروفي تمنعني فلماذا لا يفكر هؤلاء «الأصدقاء» في زيارة العاصمة وسوف أدعوهم للإقامة خلال الزيارة في فندق جميل ؟

وسعدت بالدعوة كثيراً . . وشغلت خلال الأيام التالية مع صديقتيها باختيار ما سوف ترتديه يوم السفر حين يراها لأول مرة بعد هذه السنين وتأملت وجهها الذي ترك الزمن آثاره عليه وحاولت أن تطمئن نفسها بأنه لابد يتوقع أن يري امرأة تقترب من الخمسين وأن الزمن كما سحب آثاره عليها فقد سحبها أيضاً عليه .

وركبت القطار وهي سعيدة ومبتهجة . . وقلقة . ونزلت في محطة العاصمة وسارت بين زحام الركاب الي حيث طلب منها الانتظار فرأته عن بُعد قبل أن يراها وعرفته من الوهلة الأولي لكنها فوجئت بأنه لايزال يحتفظ بوسامته القديمة بل قالت لنفسها انه أكثر وسامة من أيام المدرسة وأكثر جاذبية ! .

وفكرت قليلاً ثم حزمت أمرها وقررت أن ترجع الي رصيف المحطة لتركب القطار العائد الي بلدتها قبل أن يراها ويفاجأ بامرأة متوسطة العمر لا علاقة لها بفتاة الأحلام السابقة . . واستدارت لتتجه الي الرصيف فأحست بيد تربت علي كتفها . والتفتت لتراه يحدق فيها باهتمام ولهفة . . وصافحته بحرجة فصافحها وهو يقول لها : انك أكثر جمالاً . . وشباباً مما توقعت . . لكن الي أين كنت عائدة ! واستردت بعض طمأنينتها وركبت الي جواره سيارته وهي في قمة الابتهاج ، وأودعا حقيبتها في الفندق ثم اصطحبها الي النادي وأمضت اليوم كله معه الي أن أعادها الي فندقها في المساء .

وانتهت أيام الزيارة كالحلم وعادت الي مدينتها وهي سكري بالسعادة والابتهاج وأصبح اتصاله بها كل ليلة هو الخيط الوحيد الذي يربطها بالحياة ، وسألها بعد شهور لأول مرة هل لا تزالين تحبينني؟ . فأجابته بدموع غزيرة وأكدت له أنها لم «تكف» عن حبه يوماً واحداً منذ افترقا .

وبعد أسابيع سألها :

مارأيك في أن نقضي مابقي لنا من عمر في «مكان واحد» . . وبكت بحرارة كفتاة في العشرين تسمع طلب الزواج لأول مرة من فتاها .

وأعلن الطبيب الكبير لأصدقائه أنه سوف يصحح خطأ قديماً ويتزوج من الفتاة التي أحبها خلال صباه وشجعه الجميع علي الفكرة .

وأعلنت هي أيضاً الخبر لصديقتيها فابتهجتا له . . لكنها فوجئت بعد أيام بسيدة غريبة تطرق عليها باب مسكنها وتستأذن في الدخول ، ورحبت بها فقدمت الأخري لها نفسها بأنها «صديقة» الطبيب الكبير منذ ٥ سنوات وانها تريد أن تتحدث اليها بروح الصداقة عن تقلباته العاطفية ونزواته الكثيرة وكيف خانها خلال ارتباطها به عدة مرات فكانت تصفح عنه في كل مرة لأنها «سيدة مجتمع» منفتحة تنظر للحياة نظرة واقعية وترضي بأن يعود اليها وينتهي الأمر ثم سألتها :

انك عاطفية . . وشديدة الحساسية كما علمت ولا خبرة لك بالرجال مثلي فهل انت واثقة من تحملك هذه الآلام اذا ارتبطت به؟ .

واهتزت الأرملة الوحيدة لما سمعت لكنها حاولت أن تتمالك نفسها وشكرت السيدة المجهولة علي «نصيحتها» .

وجاءها صوته في المساء فسألته وهي تكتم مشاعرها :

هل صحيح انك ضعيف أمام النساء وسوف تهجرني وراء أول امرأة تلتقي بها بعد الزواج؟ .

وأدرك بفراسته ما حدث فأكد لها أن الرجل حين يوفق الي الالتقاء بحب العمر الحقيقي فانه لا يخون ولا يهجر.

واستراح قلبها قليلاً.. لكن الأخري لم ترحمها.. فهي تتصل بها تليفونياً كل يوم وتبثها بطريقة ناعمة سمومها وشكوكها.. وكلما اقترب موعد سفرها الي العاصمة لتتزوج شريكها ضاعفت الأخري من جرعات السموم حتي كادت تنهار وتخور قواها وتعدل عن الارتباط بفتاها القديم وأحست الصديقتان بمعاناة صاحبتهما فاتصلت احداهما بالمرأة الغازية وطالبتها بالابتعاد عن حياة صديقتها فأجابتها بتصميم: انني أدافع عن حياتي فأنا مطلقة في الاربعين وكنت أستعد للزواج منه وأنا أناسبه أكثر من صديقتك لأني سيدة مجتمع ذهني متفتح وتفكيري واقعي وأستطيع أن أتقبل نزوات زوجي بغير أن أطلب الطلاق وصديقتك عاطفية وحساسة وسوف تنهار نفسياً وعصبياً اذا واجهت خيانة زوجها المتوقعة في أي وقت فلماذا لا تقنعينها بالانسحاب من هذا الطريق الشائك؟.

وتمزقت الأرملة الشابة بين تطلعها القديم للسعادة.. وإشفاقها علي نفسها من أن تتعرض لغدر جديد في سن لم تعد تسمح لها باحتمال الغدر والنزوات. وقررت تأجيل سفرها بضعة أيام احتجبت خلالها في البيت لا تغادره ولا تكف عن التفكير في أمرها.

وبعد ليلة طويلة أمضتها معذبة بالسهاد والتفكير نهضت من فراشها فجأة في الفجر وأيقظت غريمتها من نومها وقالت لها في التليفون: سأتزوج الرجل الوحيد في العالم الذي كان ينبغي أن أتزوجه وأنا فتاة

صغيرة ثم أعادته لي الأقدار بعد ٢٨ سنة لأستأنف معه قصة الحب الوحيدة في حياتي.. فكفي عن محاولاتك لافسادها. فهو ليس فرصتك الأخيرة كما تزعمين فأنت في الأربعين وأنا أقترب من الخمسين وأنت جميلة وجذابة وتجيدين فن الاقتراب من الرجال وسوف تحصلين بسهولة علي غيره وربما أفضل منه.. لكني كما ترين سيدة من الأقاليم وليس لي فنك ولا خبرتك وهو حب حياتي الذي ضاع مني ٢٨ عاماً ثم استرددته.. لذا فهو فرصتي الوحيدة للسعادة.. وتعويض الآلام.. وسوف أتزوجه.. حتي ولو عانيت معه. ثم وضعت السماعة.. ونهضت بحماس وابتهاج تعد حقائبها وتترنم بكلمات أغنية عاطفية قديمة.. وأسرعت الي المحطة لتلحق بأول قطار.. وبآخر فرصة للسعادة.. وراحة القلب.

الفهرست

١	فنجان للذكرى	٥
٢	أجازة عارضه	١٥
٣	دموع الصباح	٢٩
٤	أمسية سعيدة	٤١
٥	الجانب الآخر	٥٣
٦	ساعات الصباح	٦٥
٧	أوراق لا قيمة لها	٨٣
٨	الرجل الخطير	٩٧
٩	مقعد على الشاطىء	١٠٧
١٠	حديث فى الليل	١٢١
١١	واسطة خير	١٣٣
١٢	سجن الليل	١٤٥
١٣	فتاة عملية	١٥٩
١٤	لص القلوب	١٧١
١٥	الفرصة الأخيرة	١٨٣